

مطبعة خان بکته مله

همزات الشياطين

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

الطبعة
مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - أجمالا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

وَسُوءَةُ الشَّيْطَانِ

التف المصلون عقب صلاة المغرب حول عالم من العلماء في مسجد الحسين ، وجعلوا ينصتون إلى حديثه الذي كان يدور حول ما أعد الله للمنافقين والذين في قلوبهم مرض في خشوع ؛ فقد كان الرجل طلق اللسان قوى البيان ، فكانت الكلمات تندفق من فيه حامية كشواظ من نار ، فتنفذ إلى قلوب الناس فتجعلهم يرتجفون من خشية يوم العرض الأكبر . وراحوا جميعا ينصتون وقد اشرأبت منهم الأعناق ، وكنمت الأنفاس فلا يأخذون من الهواء إلا بقدر كأنما حرم عليهم التنفس العميق ، وبان على وجوههم التأثر الشديد . وكان بينهم شاب في الثلاثين قمحي اللون وسيم قسيم ، كان أقل المستمعين تأثرا بذلك الحديث ، لا لأن الحديث لا يؤثر فيه ولا لأنه لا يؤمن به ، بل لأنه يعتقد أن الحديث لا يعنيه ، فما هو من المنافقين ولا من الذين في قلوبهم مرض ، بل هو شاب صالح يعتقد اعتقاد اليقين أنه من أصحاب اليمين الذين سيدخلون الجنة بسلام ، فقد صلى صغيرا وصام صغيرا ، فما ارتكب معصية ولا تردى في هاوية كما يتردى أقرانه كل يوم وليلة ؛ فما شرب خمرا وما عرف النساء أبدا قبل أن يتزوج ، وكان وهو حدث يخرج وأبوه لزيارة المساجد فألف ذلك واعتاده ، فإذا ما فكر في الخروج من البيت لا يفكر إلا في الخروج إلى مسجد يزوره ، وإنه ليعرف المسجد الذي سيقصده في اليوم الذي سيخرج فيه ، فقد خصص معتادو زيارة المساجد يوما لكل مسجد ، فيوم الجمعة لزيارة الإمام الشافعي حيث القراء يقرعون متتابعين من العصر

حتى المغرب ، ويوم الأحد لزيارة السيدة زينب ، وليلة الثلاثاء للحسين حيث الحضرة الكبيرة التي يؤمها وجوه الصالحين ، أما ليلة الأربعاء فلزيارة السيدة فاطمة النبوية ، وليلة الجمعة لزيارة المحمدى حيث يقيم السادة الدمرداشية « المحيا » مرددين أدعيتهم قارئين ما يختارونه من السور .

واستمر العالم في حديثه واستمر صلاح يتلفت إلى الناس ولسان حاله يقول : « هذا الحديث لكم ولا شأن لى به ، فما أنا من المنافقين ولا من الذين في قلوبهم مرض » . وارتفع صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة العشاء فأطرق الناس في خشوع ، ثم قاموا للصلاة ، ولما قضيت رفعوا أكف الضراعة وراحوا يعلنون توبتهم ويلتمسون من الله الرحمة ، ولكن صلاحا لم يلتمس توبة فعم يتوب وما ارتكب معصية ؟ بل جعل يردد دعاء حفظه : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

ولم يكن ذلك الدعاء منبعثا من قلبه ، بل كان لسانه يردده دون وعى . وخرج من المسجد فوجد الناس جالسين فى المقاهى الكثيرة المبعثرة فى ذلك الحى فغمغم : « يا للمجرمين ! يسمعون نداء الله ولا يلبون ، تمتعوا قليلا فلن يقودكم شيطانكم إلا إلى جهنم وبئس المصير » .

وعاد صلاح إلى بيته وجلس وزوجه يتناولان طعامهما ، والتفت إليها وقال :

— أبلغك ما حدث لعبد التواب افندى ؟

— لا .. وما حدث له ؟

— طرد من عمله .

- طرد من عمله ؟
- أجل .. قد اختلس مبلغا .
- مسكين .
- أترثين لسارق ؟ ! ما أبلهك !
- إنه يستحق الرثاء .
- إنه يستحق قطع يده .
- له أبناء صغار يستحقون كل عطف .
- لماذا ترك مسارب الشيطان مفتوحة في نفسه ؟ لماذا طأوعه على أخذ مال غيره ؟ إنه يستحق ما ناله وزيادة .
- قد يكون مظلوما يا صلاح .
- لا .. ثبتت عليه السرقة .
- من يدري يا صلاح ما دفعه إلى ذلك ، قد يكون معذورا .
- ما من عذر يبرر السرقة .
- للبشر ضعفه ، من يدري ؟
- لا تقولى هذا أمامي يا سميرة فأني لا أعترف بضعف الإنسان ، وإني لأعجب لامرئ لا يستطيع كبح شيطانه .

تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود وارتفع صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر ، فهب صلاح من نومه وقام ليتوضأ : ولما انتهى من وضوئه قفل راجعا إلى حجرة نومه ، واتجه إلى سرير زوجته وراح يهزها وهو يناديها :
— سميرة .. سميرة ، انهضى قد أذن الفجر .

فتقلبت الزوجة في فراشها وسحبت الغطاء عليها واستأنفت نومها ، ولكن زوجها استمر يهزها ويهتف :

— سميرة .. سميرة انهضى .

فقال في صوت فيه نعاس :

— دعنى .. أوه ! دعنى أنام .. النوم لذيق الساعة .

— انهضى .. الصلاة خير من النوم .

فقامت تتمطى ، واتجه صلاح إلى السجادة العجمية الصغيرة التى أعدت للصلاة ووقف مستقبلا القبلة ، وجعل يتمم :

— اللهم أحسن قيامنا ووقوفنا بين يديك ، نويت أصلى ...

وقبل أن يكبر لمح زوجته قد ارتمت على سريرها وسحبت الغطاء عليها وأغمضت عينيها ، فترك الصلاة وانطلق صوبها وجذب عنها الغطاء وصاح :

— سميرة قومى ، ما هذا الكسل ؟

— والله إن لم تدعنى لأنقضن وضوءك .

— قومى قبل شروق الشمس ودعى الهذير ، فالوقت ليس وقت مزاح .

— دعنى قليلا إذا كنت تحبنى .

— إني أحبك أكثر مما تحبين نفسك ، إني أود أن أزحزحك عن النار وأنت

تتقاهين فيها .. قومى .

فقامت متناقلة وسارت تتمطى حتى خرجت من الغرفة ، ووقف صلاح يصلى ، ولما قضيت الصلاة أتكأ على مقعد طويل وجعل يسبح ، وأقبلت زوجه واستقبلت القبلة واندججت فى الصلاة ، فجعل يرقبها مطمئن النفس منشرح الصدر فخورا بنفسه فرحا بما أسداه إلى زوجه ، فقد هداها إلى الصراط المستقيم وسيؤجر على ذلك يوم توفى كل نفس حسابها ، وإنه ليطمع فى أن تكون حسناتها فى ميزانه فهو صاحب الفضل الأول عليها ولولاه ما جنت حسنات . وتحركت شفتاه بآى الذكر الحكيم فجعل يقرأ الحزب الأخير من سورة الزخرف ، فلما بلغ « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » رفع صوته متعمدا ليبلغ مسامع زوجه ، وراح يقرأ وهو يهتز اهتزازا خفيفا : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » . واستمر فى القراءة ، ولما انتهى من الحزب راح يفكر فى الجنة ونعيمها ، فرأى نفسه يدخلها مطمئنا ، ثم يتلفت فلا يجد سميرة فيسأل عنها خزنة الجنة فيخبرونه أنها ستدخلها إكراما له ، وتوافيه سميرة فرحة فينطلقان إلى النعيم المقيم . واستمر ينعم بأحلامه التى يجترها كل يوم فى راحة واطمئنان وسرور ، حتى دخلت زوجه وأخبرته أن الفطور قد أعد فقام ليتناول فطوره قبل أن ينتشر فى الأرض ويتغنى من فضل الله .

أغلق صلاح باب مسكنه خلفه ، وقبل أن يهبط بالنزول في الدرج فتح باب المسكن المواجه له وخرجت منه فتاة واسعة العينين ناهدة الصدر نحيلة الخصر ، وما إن تلاقت عيناه بعينها حتى غص من بصره وتأخر خطوات ليفسح لها الطريق ، فمرت من أمامه وملأت خياشيمه رائحة عبقة أنعشت نفسه ، ولكنه ظل مطاطئ البصر . وهبطت في الدرج قافزة ، ولم يقدر صلاح على أن يجمع شهوة التطلع طويلا فنظر من بين أهدابه المسبلة فوق بصره على ثدين يترجرجان صاعدين هابطين ، فأغمض عينيه وتعوذ من الشيطان الرجيم . وخفت وقع أقدامها وتلاشى فوجد نفسه يهبط مسرعا وما كان لينزل إلا متمهلا وقورا متخذاً سمة الكهول الموقرين . وسأل نفسه عما دفعه إلى الهبوط السريع ، فرد ذلك إلى جو الربيع الذي أنعشه فدب فيه نشاط حبيب إلى النفس . وبلغ الطريق فلمحها تغذ في السير وتصعد الطوار خفيفة رشيقة ، وما تقطع في الطريق خطوات حتى تعود لتقفز إلى الطوار ثانية كأنها خيال يطير لا يبغي المكث على الأرض ولا يطيق اللصوق بها .. ووجد نفسه يغذ في السير ، ولكن علام الإسراع وما هناك حاجة إلى الإسراع فما زال في الوقت متسع ؟ وأحس همسا خفيفا يتبعث من داخله يستفسر : « ترى أتغذ في السير لتلحق بها وتتطلع إليها ؟ » . وما هجس هذا الهاجس في نفسه حتى تفزع وجفل ، وضيق من خطوه وتعوذ وابتدأ في قراءة المعوذتين .

وبلغ صلاح محطة الترام فوجدها هناك تنتظر لا تستطيع السكون لحظة ،

فهى تتطلع إلى الناحية التى سيقدم منها الترام فى قلق ، ثم تنظر إلى الساعة التى فى معصمها ، ثم تلتفت أمامها وخلفها ويمنة ويسرة ، ثم تأخذ فى قطع إفريز الترام هابطة صاعدة فى تبرم . وكانت حركاتها سريعة ، وكان جسمها يموج موجا كأنما قد سرى فيه تيار كهربى . واقتربت منه وهو واقف فى مكانه والتقت عيناها بعينه فأطرق ، وأولته ظهرها وابتدأت فى قطع الإفريز هابطة فتبعها بنظره فوجدها فاتنة القوام ، فعلى الرغم من أنها ممتلئة قليلا إلا أن جسمها مفصل تفصيلا ، وكان يزينها شعر سبط طويل أسود كليل اختفت منه النجوم . وساءه أن يتبعها بنظره فأسبل جفنيه واستدار ينظر إلى الناحية الأخرى وجعل يقرأ بعض السور القصار ، وأقبل الترام فقفزت إليه خفيفة رشيقة كعادتها ، وصعد هو فى تودة وشفته فى حركة سريعة دائمة .

أغلق صلاح باب مسكنه خلقه ، وقبل أن يهيم بالنزول في الدرج فتح باب المسكن المواجه له وخرجت منه فتاة واسعة العينين ناهدة الصدر نحيلة الخصر ، وما إن تلاقت عيناه بعينها حتى غض من بصره وتأخر خطوات ليفسح لها الطريق ، فمرت من أمامه وملأت خياشيمه رائحة عبقة أنعشت نفسه ، ولكنه ظل مطاطئ البصر . وهبطت في الدرج قافزة ، ولم يقدر صلاح على أن يقمع شهوة التطلع طويلا فنظر من بين أهدابه المسبلة فوق بصره على ثدين يترجرجان صاعدين هابطين ، فأغمض عينيه وتعوذ من الشيطان الرجيم . وخفت وقع أقدامها وتلاشى فوجد نفسه يهبط مسرعا وما كان لينزل إلا متمهلا وقورا متخذاً سمة الكهول الموقرين . وسأل نفسه عما دفعه إلى الهبوط السريع ، فرد ذلك إلى جو الربيع الذي أنعشه فذب فيه نشاط حبيب إلى النفس . وبلغ الطريق فلمحها تغذ في السير وتصعد الطوار خفيفة رشيقة ، وما تقطع في الطريق خطوات حتى تعود لتقفز إلى الطوار ثانية كأنها خيال يطير لا يبغى المكث على الأرض ولا يطيق اللصوق بها .. ووجد نفسه يغذ في السير ، ولكن علام الإسراع وما هناك حاجة إلى الإسراع فما زال في الوقت متسع ؟ وأحس همسا خفيفا يتبعث من داخله يستفسر : « ترى أتغذ في السير لتلحق بها وتتطلع إليها ؟ » . وما همجس هذا الهاجس في نفسه حتى تفرع وجفل ، وضيق من خطوه وتعوذ وابتدأ في قراءة المعوذتين .

وبلغ صلاح محطة الترام فوجدها هناك تنتظر لا تستطيع السكون لحظة ،

فهى تتطلع إلى الناحية التى سيقدم منها الترام فى قلق ، ثم تنظر إلى الساعة التى فى معصمها ، ثم تلتفت أمامها وخلفها ويمنة ويسرة ، ثم تأخذ فى قطع إفريز الترام هابطة صاعدة فى تبرم . وكانت حركاتها سريعة ، وكان جسمها يموج موجا كأنما قد سرى فيه تيار كهربى . واقتربت منه وهو واقف فى مكانه والتقت عيناها بعينه فأطرق ، وأولته ظهرها وابتدأت فى قطع الإفريز هابطة فتبعها بنظره فوجدها فاتنة القوام ، فعلى الرغم من أنها ممتلئة قليلا إلا أن جسمها مفصل تفصيلا ، وكان يزينها شعر سبط طويل أسود كليل اختفت منه النجوم . وساءه أن يتبعها بنظره فأسبل جفنيه واستدار ينظر إلى الناحية الأخرى وجعل يقرأ بعض السور القصار ، وأقبل الترام فقفزت إليه خفيفة رشيقة كعادتها ، وصعد هو فى تودة وشفته فى حركة سريعة دائمة .

عاد صلاح من عمله فتناول غداءه ثم تمدد قليلا ؛ ولما أذن المؤذن بالعصر نهض وصلى ، ثم سحب كرسيه ودخل الشرفة يستروح نسيم الأصيل ، وجلس يملا رئيته بالهواء وينفثه في هدوء . ومرت مدة وهو ساكن هادئ حتى دخلت زوجته وجلست على كرسي بجواره وهم أن يقص عليها خبر فتاة الصباح التي لم يرها قبل اليوم ولكنه أحجم ، فماله وما لها ؟ وظل في صمته يتطلع إلى الطريق ، وراح الوقت يمر وهما صامتان ، حتى فتحت شرفة الجيران وظهرت فتاة الصباح في ثوب منزلي بديع أزرق اللون محبوبك مسبوك أبرز مفاتها وزادها حسنا على حسن . ولحها صلاح فتطلع إليها برهة ثم رد الطرف ، وتلاقت عيناها بعيني سميرة فأومأت إليها برأسها محيية ، فردت سميرة التحية بإيماءة خفيفة من رأسها وبابتسامة برقت لحظة ثم ماتت سريعا ، فالتفت صلاح إلى زوجته وقال :

— أتعرفينها ؟

— إنها ابنة الجيران .

— ولكننا لم نرها قبل اليوم .

— نقلت إلى القاهرة حديثا .

— نقلت ؟

— إنها مدرسة كانت تعمل في طنطا ، وقد سعى أبوها حتى تم نقلها .

— لا بد أن لهم أهلا في طنطا .

- أبدا .
- أبدا ؟ ومع من كانت تعيش ؟!
- وحدها .
- وحدها ؟! كيف تعيش فتاة في مثل سنها وحدها ؟
- إن أمها تفخر بها وتقول : ابنتي رجل .
- ما شاء الله ! أهذا معقول ؟ إن النبي ﷺ يقول : لا تسافر امرأة مسيرة يوم وليلة إلا ومعها ذو رحم محرم .
- تغيرت الأوضاع وانقضى ذلك الأوان .
- وانقضت فضائله .
- أصبحنا نرى فتيات في كل ميدان ، وقد اطمأن الأهل هن ..
- هذه غفلة الأهل . فكيف نترك هن الحبل على الغارب ونحن مطمئنون
- يفرحنا التشدد بالألفاظ : « إن ابنتنا رجل لا خوف عليها » ؟ ليس من
- المعقول يا سميرة أن نترك الشاة في رعاية الذئب ، سيلتهمها لا محالة . فإن خالجتنا
- شك في ذلك كنا من الغافلين .
- أعدت الفتاة لخوض معركة الحياة .
- وما هو هذا الإعداد ؟ أغيروا من طبيعتها ؟ إن للطبيعة نداءات .
- ثقفوها وحصنوها بالعلم ، ثم ألقوا بها في اليم مطمئنين .
- سيجرفها التيار . قد ركبت فيها غرائز وشهوات ورغبات . فإذا يسرنا
- لها طريق إشباع تلك الرغبات قطعت تلك الطريق . إنها ستحب . وما أيسر
- الاتصال بمن تحب على من كانت حرة بلا رقيب .
- إذا أحبت تزوجت ممن تحب .
- هذا هو السراب الخادع ، ليس كل الرجال على استعداد للزواج ، وما

الطريق ، فأنحسر ثوبها وظهرت ساقها عارية كأنما خرطت من مرمر فأخسر
نشوة خفيفة . واستمر في تطلعه وهو يحسب أنها لا تفطن إلى موقفه ، وعجب
في نفسه : ما بال مجرد ساق عارية تهزه وتحرك نشوته بينما لا يؤثر فيه التصاق
جسمه بجسم زوجته ؟ ، والتفتت برأسها نحوه فالتقت عيناها بعينيه ، وخيل
إليه أن عينيها تبتسمان . وعلى الرغم من أنها فطنت إلى وقوفه فإنها لم تسارع
إلى تغطية ساقها ، أو رد الثدي النافر إلى مكانه تحت الثوب الأزرق المفتوح
الجيب . ولم يطق الصبر طويلا على تلاقى العيون فغض من بصره ، واستمرت
هى في التطلع إليه دون أن تختلج عينها خلجة ، فأحس بالخلجل وترك الشرفة
ودخل .

أصبح الصباح وفتح صلاح باب مسكنه لينطلق إلى عمله ، ثم خرج منه وأغلقه خلفه . ولم يهبط في الدرج مباشرة بل وقف لحظة يتطلع إلى باب الجيران الموصد ينتظر أن يفتح بين لحظة وأخرى ، وكان في قرارة نفسه يتوق إلى أن تخرج منه فتاة الأمس ، على الرغم من أنه كان ينفي ذلك الخاطر ويحاول أن يجد لوقوفه تعليلاً آخر ترتاح إليه نفسه المرتابة . وسار الهوينى ، وهبط متمهلاً يتلفت خلفه بين الفينة والفينة . وسمع وقع أقدام هابطة فانشغل بإصلاح رباط حذائه حتى يلحق به الهابط وليرى من يكون ، واقترب صوت الأقدام وأصبح الهابط على مقربة منه فلو أنه رفع رأسه لرآه ، فاشتد وجيب قلبه وأحس به يسقط في قدميه . ولم يقدر على رفع رأسه فاستدار دون أن ينظر واستأنف هبوطه متمهلاً ، ومرق الهابط بجواره ولمس كتفه فاحس هزة خفيفة . وسبقه النازل فلم يكن هي ، فأحس صلاح راحة تكتنفه كأنما فر من شيء يهابه . وصفت نفسه فجعلت تؤنبه وتنعي عليه مسلكه المشين ، فماله يتباطأ اليوم في هبوطه بينما نزل بالأمس في الدرج مهرولا معللاً ذلك النشاط بجو الربيع المنعش ؟ إنه أسرع بالأمس ليلحق بها وتباطأ اليوم لتلحق به . ولكن لم يعجبه هذا الاتهام فراح يدفعه بقوة وينكر أن يكون لمثل تلك الفتاة تأثير عليه . إنه أقوى من أن تؤثر فيه فتاة وإنه على قهر شيطانه لقدير ، فلتقر نفسه المضطربة بالباطل المدانة ظلماً .

وبلغ الطريق وابتدأت شفتاه تتحركان متممة بعض آى الذكر الحكيم ،

(هزات الشياطين)

ولم يشغله ما كان يقرأ عن التلفت خلفه بين لحظة وأخرى ، فإنه كلما قطع بضع خطوات تلفت خلفه . وسأل نفسه : « لم يتلفت اليوم خلفه وما كان يتلفت أبدا إذا سار ؟ » . فهمس في أذنه هامس : « إنه يبحث عنها » . وما فكر في هذا حتى تفزع وأنكره وجعل يعلل تلفته بأنه يستكشف الطريق خشية أن تدهمه عجلة من العجلات المنطلقة سريعا ، وقد استراح إلى هذا التعليل ولم يكلف نفسه مؤنة سؤالها أنه ما كان يتلفت خلفه قبل اليوم على الرغم من أن الطريق هي نفس الطريق التي يقطعها منذ سنين ، وأن العجلات كانت تنطلق بجواره قبل اليوم وما كان يحفل بها أو يخشى غدرها .

ولاحت له محطة الترام فأخذت عيناه تنتقلان بين المنتظرين على الإفريز سريعا حتى إذا ما وقعتا عليها استقرتا مدة . وأحس اضطرابا لم يدر له من تأويل ، ووقفت حركة شفثيه الدائمة قليلا . ثم ما لبث أن أسبل عينيه واستأنف ما كان يقرأ وسار بخطوات ثابتة حتى وقف على الإفريز ينتظر الترام . ومرت مدة ، وعادت عيناه تصوبان إليها وتدوران معها أينما دارت ، فصارتا كعباد شمس يتبع معبودته أينما ولت وفطن إلى حركات عينيه العاصيتين لما أقبل الترام فتعوذ من الشيطان وركب دون أن ينظر إليها . ووجد مقعدا خاليا فجلس ونظر من النافذة المجاورة إلى الطريق ساهما لا يفكر في شيء . وانطلق الترام وهو ساهم ثم عاد إلى نفسه واعتدل في جلسته ونظر داخل الترام فوقع نظره عليها واقفة بجواره مستندة إلى المقعد الجالس عليه ، فارتجف رجفة وهب كالمذعور وقال لها وقلبه يضطرب :

— تفضلى ... تفضلى .

وتنحى عن مقعده فجلست وقد ابتسمت له ابتسامة حلوة ، وتمتمت :

— متشكرا .

وجعل صلاح يرقبها من طرف خفى ، فراعها سواد عينها وبريقهما الأخاذ . وجاءت جلستها بجوار زميلة لها فدار الحديث بينهما ، وألقى نفسه ينصت إلى حديثهما على الرغم منه فراعها ذلك ، وحاول أن يصم أذنيه وأن يشغل نفسه شيء آخر يشغله عن متابعة حديثهما فراح يتفرس في وجوه الراكبين مرة ، ويعددهم مرة أخرى ، ولكن محاولاته جميعا ذهبت سدى ، فقد كان صوتها يمس أذنيه فينعشه فيرهف السمع على الرغم منه ، وإنه لينتشي لسماع صوتها ولو أنكر هو ذلك في قرارة نفسه إنكارا ، ولو أرجع تسمعه إلى تلك الغريزة القبيحة التى ركبت فى النفس لإغرائها على استراق السمع .

كان حديثهما تافها لا يستحق إنصاتا ، فقد تحدثنا عن الأزياء ، ثم عن زميلة لهما وما فعلته الناظرة معها ، ثم انتقلتا إلى حديث السينما وروايات الأسبوع ، وجعلت صديقتها تصف لها رواية شهدتها وتسهب فى الوصف ، ثم أردفت وهى تضحك :

— كانت رواية بديعة يا بديعة .

فابتسمت الأخرى وقالت :

— سأذهب اليوم لمشاهدتها .

ووصل الترام إلى محطة هبوط صلاح فنزل مسرعا وانطلق إلى عمله .

وقف صلاح يصلى العصر وابتدأ فى قراءة الفاتحة ، وشرد فكره وهو يقرأ وراح يتذكر بديعة وحديث الصباح ويفكر فى الخروج إلى السينا ، وراح شيطانه يمد له فى حبل الغواية فيزين له الخروج اليوم ليروح عن نفسه . وعاد صلاح إلى نفسه وهو يركع فأفرعه شرود ذهنه وهو بين يدي الله فسلم وقطع صلاته ليستأنفها فى خشوع ، ثم انتصب واقفا وكبر مبتدئا الصلاة متصنعا الرهبة ، ولكن ما لبث فكره أن شرذ يفكر فى بديعة ذات العيون الواسعة والبريق الأخاذ . واستمر شيطانه يوسوس له حتى إذا ما سجد لم يدر أثلاث ركعات صلى أم أربعا ؟ فلم يسعه إلا التسليم والخروج من الصلاة وقد ضاق صدره وحنق على نفسه . وهم واقفا ليستأنف صلاته للمرة الثالثة وقد أطرق رأسه واندمج فى صلاته ، ولكنه لم يستطع كبح جماح فكره فشرذ واستمر فى صلاته حتى أتمها ، ولما سلم غمغم مطمئنا نفسه : « قال رسول الله ﷺ : إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تفعل به أو تتكلم » .

تمدد صلاح عقب الصلاة على مقعد طويل وراح يفكر فى الخروج إلى السينا ، ولكن لماذا يفكر فى السينا اليوم ولم يفكر فيها منذ سنين ؟ إنه ليذكر آخر مرة شهدها يوم كانت رواية صلاح الدين والصليبيين تعرض ، وإنه ليشتااق إلى الذهاب ليرى الرواية الجديدة التى يتحدث عنها الجميع . ولكن لماذا الذهاب اليوم بالذات ؟ فليؤجل ذلك إلى يوم آخر ، حتى لا تتهمة نفسه بأنه يود رؤية بديعة ظلما وعدوانا .

وخرج إلى الشرفة فوجد بديعة في شرفتها وقد اكتملت زينتها تتأهب للخروج . فاندفع كالشهاب إلى ملابسه وارتداها على عجل دون وعي منه . وهبط في الدرج قافزا . وقطع الطريق إلى محطة الترام مهرولا ، وقبل أن يصل إلى الإفريز لمح الترام واقفا وبديعة تصعد فيه ، وتحرك الترام قبل أن يبلغه فجرى شوطا ، ولما بلغه قفز فيه ووقف وأنفاسه مبهورة . وابتدأت نفسه تصفو وريدا رويدا ، ولما هدأت عجب في نفسه وجعل يتساءل : « كيف ارتدى ملابسه هكذا سريعا ؟ وكيف قطع الطريق الطويلة الموصلة إلى الترام مهرولا ؟ وكيف جرى خلف الترام وما فعل ذلك قبل الآن ؟ وكيف جرؤ على أن يقفز فيه وهو يعدو سريعا وما ركبه بعد أن ترك محطته أبدا ؟ لماذا كل هذا ؟ أهى بديعة ؟ ولكن ماله وبديعة فليس هناك ما يربطه بها ؟ إنه ما فعل ذلك إلا لأنه يرغب في الذهاب إلى السينما ولم يستطع قمع رغبته ، وما جرى خلف الترام إلا لأن ميعاد السينما قد أزف .

إنه فكر في الخروج إلى السينما قبل أن يرى بديعة في شرفتها . حقيقة إن الذهاب إلى السينما لم يخطر على باله قبل أن يسمع حديث الصباح ، ولكن ليس معنى هذا أنه من وحيها . فما أكثر ما يوحى حديث عارض إلى المرء بأشياء ، فلو أنه كان قد سمع نفس الحديث من أناس آخرين لراودته فكرة الذهاب كما راودته اليوم ، ولألحت عليه كما ألحت اليوم . إنه خرج لأنه يشاق إلى السينما لا لأن بديعة خرجت ولا لأنه يود رؤيتها . إنه أقوى من أن تهزمه شهواته أو أن تفتنه امرأة ، ولكي يرهن لنفسه أنه ما خرج من أجل بديعة فقد عزم على أن يعود أدراجه وأن يؤجل الذهاب إلى يوم آخر .

وبلغ الترام محطة السينما فهبطت بديعة ، وقفز إلى ذهن صلاح خاطر : « إن في عودته دليلا على ضعفه ، فما معنى ذلك إلا أنه يهابها ويخشأها ، فلو أن التي

هبطت من الترام امرأة أخرى غير بديعة أكان يفر من طريقها؟ إن فراره دليل عجزه ، فما بديعة إلا واحدة من آلاف يقابلهن كل يوم ، فلماذا يغير وجهته من أجلها؟ وأقنع نفسه أن نكوصه عجز واعتراف بما تهمس به النفس ، فهبط من الترام ويم إلى السينا ثابت القدم وأسرع ليشتري تذكرته ، فلما بلغ الدار وقف في الصف الطويل أمام شباك التذاكر ، وكانت عينه تلتفت إلى مدخل الدار بين الفينة والفينة . ولحها مقبلة فتزايدت ضربات قلبه وانتشر إحساس بالرهبة في صدره ، واقتربت من الصف الطويل المنتظر أمام الشباك وأخذت تنقل بصرها في تبرم حتى وقعت عيناها عليه ، فانفجرت أساريرها وابتسمت . فلم يسعه إلا أن يتسم ويتكلف الهدوء وإن كانت الثورة قد نشبت في صدره . وفتحت حافظتها وأخرجت ورقة مالية صغيرة ، ثم تقدمت منه وقالت له وهي تمد يدها بالورقة :

— تسمع ؟

فأغلق عليه ولم يدر ما يقول ، ولم يشعر إلا ويده تمتد وتتناول الورقة ، وأخيرا ابتسم ابتسامة باهتة كلفته كثيرا ولم تنبس شفته بكلمة . كان زحف صلاح إلى الشباك بطيئا ، ولم يكن زحف الأحاسيس التي تحركت في صدره بطيئا بل قفزت إلى ميدان صدره تتصارع في عنف ، وبقي وهو فريسة لها لا يدري مع أيها يميل ؛ فقد راح قلبه يحرضه على أن يختار لها مقعدا بجواره لينعم بقربها ساعات ، وجعل عقله يحذره مغبة ذلك ويطلب في إلحاح أن يختار لها مقعدا بعيدا حتى لا تظن به الظنون وحتى يرتاح من تبكيت ضميره ، واستمر الصراع شديدا لا هوادة فيه . ووجد نفسه أمام الشباك وأصبعه تشير إلى مقعد ثم تشير إلى مقعد أمامه ، وتناول التذكرتين وتنفس الصعداء مرتاحا فقد انتصر عقله على قلبه أخيرا ، ويم صوبها وناولها تذكرتها

في لطف فشكرته ، فرد عليها شكرها في حياء وانصرف .
جلس صلاح على مقعده ورأى بديعة أمامه وقد استرسل شعرها الأسود الطويل حتى لتدلى في الفراغ الفاصل بين مقعديهما ، فهفت نفسه إلى أن يمرر يده على ذلك الليل الساحر . وهم أكثر من مرة بتحقيق ما تصبو إليه نفسه ولكنه كان يحجم . وأطفئت الأنوار وابتدأ العرض ، وراودته نفسه مرات على أن يمد رجله أمامه تحت مقعدها ليجث عن قدمها يداعبها ، وكان يجمع تلك الشهوة تحت ضغط الرهبة التي كانت تكتنفه كلما اقتربت قدمه . وجمع شتات شجاعته مرة ومد يده وقبض على أطراف شعرها في كفه وأخذ يتحسسها في نشوة ، ولكنه تركها سريعا خشية أن تحس به .
وانتهى العرض وما شهد صلاح من الرواية شيئا كثيرا ، فقد كان مشغولا بالرواية العنيفة التي كانت تمثل في صدره وعاد إلى الدار مطمئنا فقد انتصر على شيطانه في زعمه .

تكررت المقابلات العارضة بينهما بعد ذلك كثيرا ، فقد التقيا عند محطة الترام مرارا ، والتقيا مرات أثناء الهبوط في الدرج أو الصعود ، وكانا يتبادلان تحية عابرة ثم ينصرف كل منهما إلى حاله . وطراً على صلاح تغير كبير فقد صار يفكر في بديعة دون أن يفزع ، ويحس نشوة إذا وقعت عيناه عليها ، وأضحت صلاته فاترة لا حرارة فيها . وقد حاول في أول الأمر أن يجمع شتات فكره في أثناء الصلاة وأن يفكر فيما يقرأ من القرآن ، ولكن كان فكره يشت وينطلق إلى حيث يحب فتماثل له بديعة في الصور التي يشتهيها . وقد ضايقه ذلك في أول الأمر ولكنه أصبح الآن لا يضيق بنفسه إذا ما فكر فيها أثناء صلاته ، كأنما قد اعتاد ذلك كما اعتاد الصلاة من قبل . وشاركته بديعة في صلاته فكانت محضرة في خياله إذا ما صلى لا تريم ولا تتزحزح ، فإذا ركع رآها في ثوبها المشجر الجميل الذي رآها فيه يوم السينما ، وكان إذا ما انتهى من الصلاة أسرع إلى الشرفة ليمتع الطرف بمحياها . فإذا ما غابت عن الشرفة يوما يحس قلقا ويشعر بعقارب الغيرة تلسعه ، ويأخذ في التساؤل أين تتجه مثيلاتها ؟ وكثيرا ما كانت غيرته تعذبه فتوهمه أنها ما خرجت إلا لمقابلة صديق من الأصدقاء تحبه ويحبها . وفي يوم من الأيام فكر فيما وصل إليه حاله ففزع ، وعقد العزم على أن يكافح رغباته الشريرة وأن ينتصر على شيطانه الذي كاد يرديه ، فراح يطرد طيفها جاهدا أثناء صلاته وما كان طيفها ليتثنى عنه . وصمم على عدم الخروج إلى الشرفة حتى لا تقع عيناه عليها ، ولكنه كان يجد نفسه مدفوعا إليها مسلوب

الإرادة ، تدفعه قوة خفية إليها دفعا لا يستطيع لها قهرا . ترى أسرى شيطانه فيه مسرى الدم ؟ وما فكر في هذا حتى نبته الراحة وجفاه الاطمئنان ، وقر رأيه على أن ينزع بديعة من فكره نزعا حتى يعود إلى حياته الأولى ، حياة الدعة والاطمئنان والهدوء . فمد يده وتناول مسبحته وأخذ يسبح في حرارة ، وراحت الحبات تمر بين أصابعه مرا سريعا ، ومرت مدة خمدت بعدها حرارة التسبيح ، وابتدأت صورتها ترنو إليه وتزحف على حذر حتى تربعت في خياله وسيطرت على لبه .

وفي يوم من الأيام قابلها عند محطة الترام فحيّاها كعادته ، ولما أقبل الترام صعدا معا وجلسا متجاورين ، ووجد صلاح نفسه يبدأها بالحديث فتشجعه وترد عليه ردا ترك أمامه أبواب الحديث مفتوحة ، واندججا في الحديث كأنما كانا قد تعارفا من قبل . ورفعت بينهما الكلفة ووجد صلاح نفسه تتفتح وتنتعش ويدور لسانه في يسر ، ولاحظ أن محطة نزوله قد اقتربت فوجد نفسه يسألها :

— أخرجين عصر اليوم ؟

— وله ؟

— رأيت أن أخرج وأسألك الخروج معا لنستأنف حديثنا .

— آسفة .

— آسف أن عرضت عليك ذلك .

— لولا ارتباطي بموعد اليوم مع بعض صديقاتي لما رفضت ، غدا إن

شئت .

— كما تحبين . . ومتى وأين ؟

— عند محطة الترام في الخامسة والنصف .

وترك صلاح الترام منشراح النفس ، ولكن لم يدم ذلك الانشراح طويلا
فقد ابتداء ضميره يستيقظ عقب هبوطه ، وأخذ يلومه على مسلكه الذى سلكه
ويؤنبه على جلوسه مع فتاة غريبة عنه يستمع إليها ويتودد ، وباليته اكتفى
بذلك بل واعدها ولم ينقض وضوء الصباح بعد . وصاح ضميره فيه : « إن
صلاتك لا خير فيها ، فلا خير فى صلاة لا تنهى عن فاحشة أو منكر » . فأطرق
صلاح أسيفا حزينا ، ترى أبا ع نفسه للشيطان ؟ فهب يذب عن نفسه كما تعود
أن يفعل وغمغم : « لا والله ، فلن يقابلها غدا ولن يهزمه شيطانه أبدا » .
وبلغ صلاح مقر عمله وابتداء يعمل كما تعود أن يعمل كل يوم ، وانقضت
فترة شرد بعدها فكره وجعل يفكر فيما دار بينه وبينها فى الترام . وحاول أن
يجمع شتات فكره أكثر من مرة ويركزه فى عمله ولكنه أخفق فى محاولاته .
وألحت صورتها عليه فاحتلت خياله وازداد وجيب قلبه ، فضاق ذرعا بحاله
فألقى برأسه إلى الخلف حتى استقر على حافة مسند مقعده وراح يفكر فى شيء
آخر يشغل به فكره ، ولكن كان خياله يعود سريعا إلى بديعة فيجتز صورها
ويتذكر حديثها ، فتململ حائقا وابتداء يردد : « واحد .. اثنان .. ثلاثة ..
واحد .. اثنان .. ثلاثة » . واستمر على ذلك مدة فنجح فى تحويل فكره عنها
إلى حين ، وسرعان ما خفت التردد وعاد إلى التفكير فيها ، فهب مفزوعا
وجعل يضرب جبهته بيطن كفه ضربات متتابعات سريعة وهو يقطع الحجرة
حائرا مضطربا كأنما يحاول أن يطرد ذلك الضيف الثقيل الذى نزل بخياله ،
والذى يتهافت عليه تهافت الذباب الذى كلما طرد عاد وهو أشد إصرارا
وعنادا . وفكر فى أن يشغل نفسه بالتسييح فراح يردد : « سبحان الله والحمد
لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » . واستمر يبدى ويعيد
فى حماس حتى أخذته الجلالة فارتفع صوته واهتز رأسه ، ونجح فى طرد طيفها

الذى أقلقته إلى حين .

وعاد صلاح إلى الدار وتناول غداءه ، ثم تمدد في فراشه ليقليل ولكن لم يغمض له عين ؛ فقد تآزر قلبه وفكره عليه وأخذوا يضنيانه ويعذبانه ، ففكره لا يحلو له إلا التفكير فيها ، وقلبه يطرب لذكرها فيأخذ في الرقص ، ونفسه لا تقرر رقص قلبه ولا شرود فكره فتبدأ في وخزه ، وإن لوخر نفسه ألما شديدا ما أقساه ، فيتلوى في سريره ويتساءل : « لم ابتلاه الله هذه البلوى ؟ ولم يمتحنه بهذا الامتحان العسير ؟ » . فما أسرع أن يهمس صوت غروره بالجواب : « إن الله لا يتلى إلا عباده المخلصين وهو من خيرة عباده ، وسيخرج من محنته مرفوع الجبين » . وقر قراره على ألا يفكر فيها أبدا وعلى أن يقتلعها من فكره اقتلاعا فأحس راحة لقراره هذا الحكيم ، كأنما ذلك أمر يسير . وانقضت لحظات وهو هادئ ساكن لا يفكر في شيء فحسب أنه على إنفاذ قراره من القادرين .. فانتشت نفسه سريعا وانشرح صدره قليلا . وقبل أن يتم صفوه قفزت صورة بديعة إلى خياله والتصقت به لا تريم ، وراح يفكر فيها فأحس نشوة في قلبه وأن نفسه تهفو إليها ، ويديه تشتاقان إلى المرور على شعرها الجميل وذراعيها البضتين .. وعينيه تتمنيان الرنو إلى عينيها البراقتين الواسعتين ، وشفتيه تشتهيان لثم شفتيها . تبا له ! لقد تأمرت عليه حواسه جميعا فهو من الهالكين . وأفرعه ما فكر فيه فهب في سريره قاعدا ، ومر بيديه على وجهه ، وهز رأسه هزا سريعا كأنما يطرد كابوسا مخيفا جثم على صدره . وأجال بنظره في الحجرة فرأى زوجه تغط في نوم عميق ، فتطلع إليها فأحس نوعا من الغيرة يأكل صدره فغمغم : « يا للسعيدة ، تنام ملء جفنيها ، فلا فكر يؤرقها ولا شك يعذبها » . ومر بنظره عليها فألفاها مشرقة الوجه حلوة التقاسيم لا تقل عن بديعة جمالا ، فما بال مجرد نظرة من بديعة تهزه هزا وتجعله يضطرب اضطرابا ؟ هل لا نقدر

ما نملك ، ولا تهفو نفوسنا إلا إلى ما لا نملك ؟ واستمر يديم النظر إليها حتى انقشعت سحابة الغيرة التي احتلت صدره ، وابتدأ يسرى فيه إحساس بالعطف عليها والشفقة لها فهمس : « بل يا للبائسة ، إنها لتنام مطمئنة لا تدري فيم يفكر زوجها الحبيب ؟ ترى أى عذاب كانت تصطليه لو أنها علمت ما يقلق زوجها ويؤرقه ، لو دار بخلدتها أن هناك امرأة غيرها تسلبه لبه وتحتل فكره ؟ يا له من شقى ! كيف يقبل أن يخون زوجته ولو في الخيال ؟ كيف يرضى أن يشرك غيرها معها في تفكيره ؟ بل كيف يسمح لنفسه أن يفكر في غيرها دواما ولا يفكر فيها أبدا ؟ إن بديعة لتتخايل له في يقظته ومناমে ، وإنه لا يذكر أنه فكر في زوجته مرة واحدة بعد تركه الدار . كيف سمح لنفسه بهذا ؟ أيرضيه أن تفكر سميرة في سواه ؟ » . وما فكر في هذا حتى فزع ، وأحس رغبة غى أن يضمها إلى صدره كأنما يخشى أن يخطفها منه خاطف ، فقام من سريره وسار إلى سريرها وركع بجواره ، ولف ذراعه حولها وراح يلثم كل موضع فيها .

* * *

أتم صلاح صلاة العصر فرفع يديه إلى السماء وراح يدعو في ضراعة ، فخرجت الكلمات حارة أحس حرارتها في صدره وما كان يحس حرارة في دعائه قبل يومه ، وكان الدعاء جديدا عليه ، فما كان قبل الآن يلتمس لنفسه الرشد بل كان يطلب الخير في الدنيا والآخرة ؛ ولكنه اليوم يدعو : « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، وأنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يستجاب له » . ثم ترك سجادة الصلاة وسار مطاطئ البصر حتى دخل غرفته ، فتناول المصحف وراح يقرأ فيه ؛ وانقضى الوقت وحان ميعاد خروجه إلى الشرفة

لتكتحل عيناه برؤيتها فأحس عزوفا عن القراءة ورغبة ملحة في الانطلاق إلى هناك . فجعل يقاوم رغبته ويرغم نفسه على القراءة إرغاما ، ولكن عينيه ثبتتا ولم تتحرك ، وابتدأ ذهنه يتحرك وإذا ما تحرك فإنه يعلم وجهته ، فما كان يتجه إلا إليها وما كان يحب إلا التفكير فيها . وابتدأ يفكر فيما يحب ، فترك صلاح المصحف في تبرم وراح يقطع الحجرة هابطا صاعدا في قلق . وألقى نفسه يسير كالمسحور إلى الشرفة ، وقبل أن يدلف إليها يصحو إلى نفسه فيعود إلى غرفته سريعا . واستمر اضطراب نفسه ، وأحس اختناقا أرجعه إلى فساد جو الغرفة فاتجه إلى النوافذ وفتحها ، فلفح الهواء وجهه وملأ رئتيه بالهواء ، وعلى الرغم من ذلك استمر الضيق على حاله . واشتدت رغبته في الذهاب إلى الشرفة وألحت عليه هذه الرغبة إلحاحا حتى كاد زمام أمره يفلت من يده أكثر من مرة ، ولكنه كان في كل مرة يجمع أشتات عزمته ويخنق تلك الرغبة خنقا . وانقضى النهار وقد نجح في كبج زمام رغبته ، بعد كفاح مرير ونضال قتال أجهده كثيرا وجعله يسقط على مقعده في إعياء وتعب .

ودخل فراشه وهو راض عن نفسه مثلوج الصدر ، فقد نجح لأول مرة في كبج جماح شهوة نفسه فلم يطعها ، وما دخل الشرفة وما رأى بديعة . وإنه ليعد ذلك نصرا وسيتبعه انتصارات ، فلن يراها أبدا ولن يقابلها غدا في الموعد المضروب ، وسيخرج في الصباح الباكر قبل مواعده اليومي حتى لا تقع عينه عليها ، وحتى لا ينكأ جرحه الذي بدأ في الاندمال .

وانقضى الليل هادئا فما تخايلت له في أحلامه ، فأيقن أنه انتصر على شيطانه . وما إن استيقظ قبل مولد النهار بلحظات حتى ألقى نفسه يفكر فيها وفي الميعاد الذي ضربه لها ، فتملل في رقدته وضاق بأفكاره وأحس رهبة تنطلق في صدره ، فنهض وتوضأ وقام يصلي ، فما تركت فكره لحظة ولا

غابت عن عينيه على الرغم من أنه كان يغمضهما ليطرد شبحها المائل أمامه . وقضيت الصلاة على أسوأ ما تكون صلاة ؛ فما درى أصلى ركعتين أم ثلاثا ، أقرأ سورة بعد الفاتحة في الركعة الثانية أم لم يقرأ ؟ أسجد مرة واحدة في الركعة الأولى أم مرتين ؟ وجلس على السجادة حزينا يحز الألم في نفسه ، وأقبلت زوجه فتتحنى لها عن السجادة ، وجلس على الأرض بالقرب منها يرقبها وهي تصلى في اطمئنان وتركع في خشوع ، فأحس نفسه يحسدها على صلاتها لأول مرة في حياته ، وينفس عليها هدوءها وطمأنيتها .

وفي الصباح الباكر خرج صلاح متعللاً بأن هناك عملاً كثيراً متراكماً يود إنجازه فلم يقابل بديعة . واستمر طوال يومه مضطرباً يؤكد لنفسه أنه لن يخرج في الخامسة والنصف للقيها . وضعفت نفسه مرات في أثناء النهار وفكرت في الخروج ولكنه كان يشد من أزر نفسه ويردها إلى قرارها الأول ، إنه لن يقابلها وهذا هو الرأي الأول والأخير .

وعاد بعد الظهر من عمله ، وراح الوقت يمر متباطئاً ثقيلًا ، وابتدأت فتنة صدره تتحرك ، فقد استيقظ القلب وهب يطالب بحقه صاحبا مشاغبا ، وأرهفت منه الحواس جميعاً وراحت تطالبه بالوفاء ، وشد شيطانه من أزر حواسه النائرة فلبس ثوب الناصح وراح يقنعه بأن في مقابلتها نجاته ؛ فإن في إحجامه عن مقابلتها إشعالاً لنار شوقه فيزداد بها تعلقاً ، ويصبح من الصعب على قلبه نبذها . أما لو قابلها اليوم فستنطفئ جذوة شوقه ، وسيعود إليه هدوؤه الذي فقده ، وسينقضي قلقه واضطرابه . إنه يهيم بالأحلام ويحن إلى المجهول ، فإذا ما أصبحت الأحلام حقيقة والمجهول معلوماً فقدت روعتها وسحر تأثيرها ، وعادت إليه نفسه راضية مطمئنة . وأخذ شيطانه يزين له الخروج وينفخ في غروره فيقنعه أنه قوى لن يؤثر فيه لقاءها ولقد واثته الفرصة يوم السينا فلو كان ضعيفاً لا تنزهها ، ولكنه فوها متعمداً . إنه أقوى من أن يضعف أمامها ، فما الذي يخشاه من لقاءها ؟ أيجشى أن تجره إلى ارتكاب معصية ؟! هذا محال فلن يرتكب معصية أبداً . وأحس عزيمته تذوب تحت

حرارة إغراء شيطانه كما تذوب الشمعة تحت حرارة النار . وشعر بنفسه
تضعف وتخور ، فهب يقطع الحجرة جيئة وذهوبا في ترم وقلق ورهبة هاتفا
من أعماق نفسه : « لن أذهب ولن أستمع لهذا اللغو أبدا » . ولم يهدأ لحظة ،
واستمر القلق يساوره والرغبة تملكه والقلب يخفق خفقانا والصدر يكاد
ينفجر من ضغط الأحاسيس المتباينة التي اتخذت منه مسرحا لاضطرابها
وتصارعها . وبلغ الضيق به منتهاه فأحس نفسه تدمى ، وراح يفكر فيما
ينقذه من عذابه فتذكر قصة قرأها ، قصة قس اعتكف في دير من الأديرة
يتعبد ، وانقضت مدة طويلة لم يقابل فيها إنسيا ، فأرهفت حواسه جميعا ،
وأصبح سمعه حديدا ، يميز أخفت الأصوات ، واشتهر أمره بين أهل المنطقة ،
وتحدث الناس بتقواه ، فأقبلوا من كل صوب وحذب يتبركون به . وترامى
نبوؤه إلى غانية فاتنة لعوب فوسوس لها شيطانها أن تغوى القس الورع ، فتزينت
وخرجت لترضى شيطانها ، وما إن بلغت بابه حتى طرقت فسمعت صوتا
هادئا يستفسر : « من الطارق ؟ » فأجابت بصوت فيه غنج ودلال : « أنا
امرأة شقية جاءت تلمس البركة » . وكأنما أحس الورع بغيتها فطلب منها أن
تنتظره في الغرفة المجاورة ، فدخلت حيث أشار عليها ، وسمع القس حفيف
ثوب فأيقن أنها تخلع ثوبها عنها ، فتحركت الشهوة في نفسه وضعف وهم بأن
يندفع إليها ويرتمى في أحضانها ليروى ظمأه ويطفئ غلته . ولكنه كبج جماح
نفسه ، وساوره قلق ، وخشى إن دخل عليها أن يفتنه شيطانه . وفكر في طردها
دون أن يراها ، ولكن ما تقول عنه ؟ أخشى مواجهتها ؟ فعزم على الدخول ،
وجالت بخاطره فكرة فراح ينفذها ، فتلفت في الحجرة فوق بصره على سكين
تناولها وقطع بها أصبعه ، فمات قلقه وفرت شهوته وتحولت أحاسيسه جميعا
إلى ألم جسده . واتجه إلى الغرفة المجاورة هادئ النفس يقطر أصبعه دما ، فلم

يحرك ذلك القوام البديع العارى المائل أمامه شهوته ، فقد كان الألم يملكه ويسيطر على حواسه . فلماذا لا يقتفى أثر ذلك الورع ؟ لماذا لا يقطع أصبعه ليحول ألم النفس إلى ألم الجسد ، وما أسرع ما يندمل جرح البدن . إنه إن أحجم فسيتصر شيطانه وستصاحبه معصيته إلى يوم الدين ، إنه ليعلم أن فى خروجه لذة يتبعها حسرة وعذاب مقيم ، ومع ذلك لا يستطيع قمع شهوة نفسه ، فليقطع أصبعه فهذا هو العلاج الوحيد للبرء من هواجس نفسه التى تضنيه ، ولقتل الأحاسيس التى تستبد به وتدفعه إلى الخروج .

وانطلق وأحضر سكيناً وهم بقطع أصبعه ، ولكن خارت عزيمته وسمع صوتاً ينبعث من أغوار نفسه يهتف به : « رويدك ولا تكن مجنوناً ، لماذا هذا العمل السخيف ؟ أبلغ بك الضعف منتهاه حتى أصبحت تستجيب إلى كل هاتف يهتف بك ؟ أفلا تستطيع أن تعزم على عدم الخروج فلا تخرج ؟ بلى تستطيع فعلام تقطع أصبعك ؟ إنك لن تخرج ولن تقابلها ، هذا هو رأى الأخير » . واطمأن إلى الهاتف الجديد ، واختلط عليه الأمر فحسبه صوت العقل فاستمع إليه ، ورمى بالسكين بعيداً وما دار بخلده أن القلب هو الذى هتف بما هتف حتى يبقى على الفرصة التى كادت تولى وتفلت منه !

واستمر صلاح فى اضطرابه وقلقه على الرغم من قراره الأخير ، وابتدأت ساعة الحائط تدق معلنة الخامسة ، فكأنما كانت تدق على أوتار قلبه فازداد وجيبه وعلت ضرباته وأخذت تدوى فى أذنيه حتى غطت على دقات الساعة . وابتدأت أجراس كنيسة قرية تدق فكأنما تأمرت عليه فأخذت تردد : « بديعة .. بديعة .. بديعة .. » . فوضع أصبعه فى أذنه ليصمها عن سماع النداء ، ولكن حواسه كانت قد بلغت من الإرهاف غايته فابتدأت تردد النداء فى داخله على دقات الأجراس المتوهمة : « بديعة .. بديعة .. بديعة ..

(همزات الشياطين)

بديعة » . وعلى الرغم من أن الأجراس قد كفت وتلاشى صوتها من الوجود إلا أن الهتاف الداخلى استمر طويلا حتى حطم أعصابه ودك مقاومته دكا... انهارت مقاومته جميعا فألقى نفسه يثجه إلى ملابسه يرتديها ، وكان قلبه فى صدره كجناح خافق صاعدا هابطا وجلا متشوقا . وتم ارتداء ملابسه فانطلق كالماخوذ إلى باب مسكنه ، وتحاشى أن تقع عليه عين زوجه فتفطن إلى اضطرابه وقلقه . وأغلق الباب خلفه فأحس رهبة تكتنفه ورجفة تسرى فى بدنه ، ولولا أنه ينطلق إلى معصية لا تمس من الله عون . ونزل فى الدرج متمهلا شارد اللب ، وما كان قلبه متمهلا بل كان يقفز فى صدره قفزا . وبلغ الطريق وهو يرجو فى قرارة نفسه أن تتخلف عن الحضور ، فلو تخلفت لاستراحت نفسه المضطربة . لقد جمحت نفسه وأفلت منه زمامها فلم يبق أمامه لمنع وقوع المقابلة إلا أمل واحد هو تخلفها . آه لو تخلفت لاستراح ولحطمت كبرياء نفسه فلا تجد ما تعذبه من أجله .

وبلغ محطة الترام وأمل تخلفها يداعبه ، وراح يتفرس فى الواقفين فلما لم يجدها أحس اضطرابا وقلقا ، وفكر عقله فى العودة ولكن وجدانه سخر من عقله وهمس : « كيف تفكر فى العودة وما وافى الميعاد بعد ؟ » . ونظر فى ساعته فوجدها الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين فقرر أن ينتظر الدقائق الباقية وبعدها يعود . واستمر القلق يساوره ، وكان ينظر إلى الساعة بين لحظة وأخرى ، وأخيرا تصيرت الدقائق الخمس ولم تظهر بديعة ، فهمس به هامس : « إلى العودة » . وهتف قلبه : « فلننتظر خمس دقائق أخرى وبعدها نعود » . وأطاع قلبه وراح ينتقل بين أول الشارع وطوار الترام فى قلق واضطراب . وكان الصراع ناشبا فى داخله بين قلبه وعقله ، فالعقل يطالب بالعودة والقلب يطالب بالانتظار . وانقضت الدقائق الخمس فهتف القلب :

« فلننتظر خمس دقائق أخرى » . وأطاع صلاح قلبه مرة ثانية وراح ينتظر وقد جفاه الأطمئنان . وأوشكت الدقائق الخمس على الانصرام فتأهب القلب لالتماس مهلة أخرى ، وما كان صلاح بقادر على أن يرفض له طلبا . لقد كان على استعداد لأن يجيب طلبه للمرة الثالثة والرابعة والخامسة . لكن قبل انقضائها لاحت بديعة في أكمل زينة عند رأس الطريق فأحس قشعريرة خفيفة تسرى في بدنه وقلبه يكاد يقفز من فيه وجفافا في حلقه ، وخيل إليه أن صوته قد ألجس فهمهم ليطمئن على صوته ، وارتفعت يده إلى رباط رقبته تسويه ، ثم امتدت إلى جيبه وأخرجت منديلا لا تدعو حاجة إليه فدرس فيه أنفه ثم أعاده إلى جيبه . واقتربت منه وخيته فرد عليها تحيتها بإيماءة من رأسه وهممة لم تتجاوز شفثيه . ووقفت بجواره ينتظران الترام فابتدأت نفسه تطمئن وأخذت تصفو شيئا فشيئا وتهدأ رويدا رويدا . وما أقبل الترام حتى كان صلاح الوجمل المضطرب قد تلاشى وحل مكانه صلاح آخر مفتوح النفس مطمئن الصاعر هادئ الأعصاب حلو الحديث ، يفتر ثغره عن ابتسامة حلوة وتبرق عيناه ببريق أنخاذ .

مد يده إلى بديعة وساعدها على الصعود ثم قفز خفيفا خلفها ، وأخذ يحادثها وقد انتششت نفسه وحلت عقدة لسانه . وبلغ الترام الزمالك فلم يحس مرور الوقت والتفت إليها وقال :

— أوصلنا إلى هنا سريعا ! هيا .

وهبطا ثم دلفا إلى اليسار ، وانطلقا في الطريق الهادئ الساكن الممتد على النيل وسارا صامتين كأنما استعارا صمتهما من صمت المكان . واقتربت بديعة منه حتى التصق كتفها بكتفه واصطدمت يدها بيده أكثر من مرة ، واستقرت يدها في يده أخيرا فراح يضغطها ضغطا خفيفا ، فكان يحس نشوة لذيدة

تسرى فيه ما كان يحسها لو أن اليد التي كانت في يده يد سميرة . واستمر السكون مخيما عليهما وكان سكونا خارجيا ، ولم تكن نفساهما ساكتتين بل كانتا تعتلجان بشعور فوار ، فقد كان كل منهما يتمنى أن يضم صاحبه إلى صدره ليطفى ناره .

وبلغا مقعدا خشبيا فجلسا يحدقان في النيل برهة ، ثم زحفت بديعة على المقعد بخفة حتى التصقت به فملا عيرها الشذى أنفه وحرك نفسه . فتاق إلى أن يضمها إليه ويطوقها بذراعيه ويمطر وجهها قبلات ، ولكنه قمع شهوته وقاوم رغبته . ورمى بنظره إلى النيل وجعل يرقب موجاته المتكسرة محاولا أن يتشاغل عن هواتف نفسه ، ولكن رغبته خنقته وسيطرت عليه ، فارتد ببصره إليها وراح يتطلع إليها في وله واشتهاء ، والتقت العيون فترجعت عما تخفى الصدور ، فمالت بديعة وأسندت ظهرها إلى صدره ، فخنق قلبه وارتفع نبضه وسرى الدم حارا في بدنه حتى أحس به يكاد يشوى وجهه . وانبهرت أنفاسه قليلا وضافت حدقتا عينيه قليلا واضطرب كثيرا ؛ وأحس شعرها الأسود السبط الجميل الذي تمنى يوم جلست أمامه في السينما أن يمر بيده عليه يلمس خده . فسرت رعدته في جسمه وارتفعت يده دون أن يتكلف ذلك وراحت تمر على شعرها في حنان ، فرفعت عينيها المتكسرتين إليه وهي مستلقية على صدره ، واستدارت قليلا كأنما استدارت للقبل ورنّت إليه في دلال ، وزمت شفيتها تدعوه في خبث إلى اللثم والعناق فلم يستطع أن يقاوم تلك الفتنة المرتمية في أحضانه ، ولا نداء العينين الواسعتين الساحرتين ، ولا الشفتين المزومتين المرتجفتين قليلا المغريتين كثيرا ، فأطبق فمه على فمها وضمها إليه في قسوة ، وغابا عن الوجود في قبلة طويلة حارة كادت تصهرهما صهرا .

أحس صلاح نشوة واختناقا ، نشوة السكران بخمر القبل واختناق الشهوة

الحبيسة ، وتحركت فيه حيوانيته فضمها إليه بشدة حتى لتكاد ضلوعها تتحطم تحت ضغط ذراعيه ، وجعل يلثمها في فمها وفي وجنتيها وعينيها وفي كل مكان تصل إليه شفتاه . وأحس أصواتا تقترب فجفل وتركها ، وأرهف أذنيه فبلغهما صوت جليلة قادمة عن بعد ، وابتدأت الجليلة تقترب وتتميز فإذا جماعة من الشبان مقبلين وقد التفوا حول شاب رفع صوته بالغناء ، وكان الشبان يهللون عقب كل مقطع مظهرين رضاهم . واقتربوا من مقعدهما فرموها بنظراتهم المرتابة المتخابضة ، فأحس صلاح بالخجل يسرى في أوصاله ، وتحرك ضميره النائم في أعماق نفسه ، وابتدأ زحفه ليقضى على أحاسيس النشوة التي كانت ترح في صدره ليسيطر على الميدان وحده ، وينكل بصلاح خصمه . وانتصر ضميره فقد ماتت أحاسيس النشوة عقب وفود الشبان عليهما ، وخلا له وجه صلاح فصاح فيه : « تبا لك ماذا فعلت ؟ تركت صلاة المغرب لترتكب المنكرات هنا ، فيا بؤسا لك ! ويا للشقاء المنتظر لك يوم تكوى شفتاك بمكاو من نار يوم العرض الأكبر ! » . وفر صلاح الهادئ ليحل مكانه صلاح المضطرب أبدا ، الخائف أبدا . واستمر ضميره يحزه وخزا آلم على نفسه من وخز الإبر ، فأحس نفسه تدمى . وأراد أن يتخلص من عذابه فنهض فتبعته بديعة ، وسار وسارت ملتصقة به وتعلقت بذراعه ، فلم يحس نشوة كذلك التي كان يحسها بل كان يحس بها حملا معلقا في ذراعه يتمنى أن يتزل عنه . وأحس ضيقا وتبرما بها ففكر أكثر من مرة في أن يصيح في وجهها طالبا منها أن تنأى عنه بعيدا وأن تغرب عن وجهه ، ولكنه ما كان على إنفاذ بغيته بقادر ، فما زال القلب يشتهيها وإن أقنع نفسه أن ما يمنعه من طردها بقية فيه من حياء ..

استمر صلاح في صمته وإطراقه حتى بلغا محطة الترام ، فلما أقبل ركبا فلم يجد سوى مقعد خال ، فجلست بديعة ووقف صلاح بعيدا يتنفس الصعداء حمدا ، فلن يضطر إلى الخوض معها في حديث لا تشتهيئه نفسه ، ولن يضطر إلى أن يتكلف الإنصات إليها وعقله شارد ، ولن يتكلف الابتسام ونفسه تدمى . وأطرق صلاح يفكر فابتدأت معركة ضميره ، فالويل له من ضميره .

بلغ التزام محطة الوصول فهبط صلاح وانطلق دون أن يلتفت إلى بديعة أو يودعها ، وأغذ في السير وهو منطو على نفسه يحس ندما ورهبة ، ندما على ما فرط منه ورهبة من نفسه .. إنه يخشى أن تحتل به فتضنيه ، وسار يعجب في نفسه لنفسه ، فما لها تعذبه إن أطاعها ، وما لها تعذبه إن رفض إطاعتها ؟ لقد اضطهدته لما قرر عدم الخروج للقاء بديعة واستمرت في تحريضه على الخروج وتزيينه له ، فما بالها الآن تهاجمه بعد أن أطاعها وتنعى عليه ضعفه ؟ واستمر في عجبه وهو لا يدري أنه ضحية نفسه المتكافئتين ، نفسه الشريرة ونفسه الخيرة ، فإذا ما جنح إلى الخير هبت الشريرة لوخزه وتنغيص عيشه ولا تهدأ حتى يطيعها ويرضى شهوتها ، وبعدها تتحرك الخيرة لجره وتأنيه فلا ينتهى تعذيبه .

وتذكر في الطريق دعاء ما كان يجرى له بيال قبل اليوم ولم يتحرك به لسانه أبدا ، فأخذ يردده في نفسه في حرارة يحس نارها تصهر صدره . ولأول مرة يحس جلال ذلك الدعاء . فاستمر يردده وهو يصعد الدرج : « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسى ... اللهم إني أعوذ بك من شر نفسى » .

ودق الباب ففتحت زوجته ، فدخل وأغلقه خلفه ثم طوقها بذراعيه وراح يقبلها في لهفة وهو يغمغم : « سميرة .. سميرة » . كأنما كان في سفر طويل عاد منه وخطر داهم يهدد حياته . وأحس كأنه يود أن يفضى إليها بكل شيء وأن

يقص عليها قصة ضعفه ، ولكنه تريث . وتخلصت منه في رفق وسألته في
ارتياب :

— ما بك الليلة ؟

— لا أدري ، إني إليك مشتاق كأني لم أرك منذ سنين .

— أأعد العشاء ؟

— انتظري حتى أصلي العشاء .

ودخل حجرته وأخذ يخلع ملابسه ، ولم ترحمه نفسه المهتاجة بل راحت
تخزه فسمع صوتاً يهتف به من أغوار نفسه : « يالك من منافق ! كيف سمحت
لنفسك أن تضع شفتيك الآثمتين على شفتيها الطاهرتين ؟! وكيف رضيت عن
أن تلف ذراعيك الملوئتين بخصرها وأن تلصق صدرك الخييت بصدرها ؟ يا
لعارك ! » . وحاول أن يتخلص من وطأة نفسه فجعل يستغفر الله في سره ،
وعاد الصوت يهتف به ثانية : « اذهب إليها واعترف لها بذنبك واطلب منها
الصفح لعلها تصفح ، فقد أسأت إليها وهي لا تدري » . وهم بأن يخرج من
حجرته ليقص عليها قصته ، ولكن صوت عقله رن في أذنيه : « حذار أن
تعترف لها ، إنها امرأة مهما سمت ركبت الغيرة فيها ، فستثير بقصتك شكوكها
وتحرك شجونها وتعذبها تعذيباً » . وجال في ذهنه خاطر ، جال في ذهنه أن
يطلب من الله الصفح ، فانطلق يتوضأ فأسبغ الوضوء ، ثم عاد واستقبل القبلة
ورفع يديه يدعو الله في حرارة ، ولأول مرة يذكر ضعفه على لسانه واستمر
يدعو : « اللهم إليك أشكو ضعف نفسي ، رب اغفر لي وتب علي إنك أنت
التواب الغفور . اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، وأنا عبدك وأنا على عهدك
ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ،

وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . وطفرت الدموع من
عينيه فمسحها بظهر يديه . ثم كبر ووقف يصلي في خشوع . وجعل يقوم
ويسجد في اطمئنان ، وصلى صلاة لم يصل مثلها قط فما شرد فكره أبدا .
وكانت حرارة الآيات التي يرتها تنبعث من قلبه وتسرى في صدره ، فكأنما
المعصية التي ارتكبها صهرت نفسه وخلصتها من أدرانها إلى حين .

انقضت أيام وصلاح يتجاشى مقابلة بديعة ، فقد كان على يقين من أنه إذا رآها تحركت شجونه ونكأ جرح قلبه الذى سكن سكون النار تحت الرماد . وكثيرا ما تخيلت له فى يقظته فكان يفكر فيها طويلا ، ثم ينجح أخيرا فى طرد طيفها الزائر . وقد رآها فى نومه مرتين ، مرة محلولة الشعر عارية إلا من غلالة رقيقة مرتمية فى أحضانه تبادل القبلات ، ومرة تقوده إلى طريق موحش مظلم مهجور فأوجس خيفة . وكان قلبه يحاول جاهدا عصر كل يوم أن يقوده إلى الشرفة ليراها ولكنه كان يقاوم مقاومة اليأس المستميت ، وقد نجح حتى الآن فى كبح جماح شهوته فلم يدخل الشرفة أبدا بعد مقابلتهما المشتومة .

وكان قلبه يتوق إلى مقابلتها مصادفة صاعدة أو هابطة أثناء صعود صلاح أو هبوطه فى الدرج ، آملا أن تحرك رؤياها فتنة صدره فيقضى على مقاومته التى شد من أزرها غياب بديعة عن عينيه . ترى لو وقعت عيناه عليها أتحور عزيمته وتذوب مقاومته ؟ إن القلب ليتوق إلى هذا وإن صلاح ليخشاه كل الخشية ، ويدعو الله لن يحفظه وأن يجنبه تجرع ذلك العذاب المرير .

ودخل صلاح حجرته وتناول كتابا راح يقرأ فيه برهة ، ثم أغلقه ووضع على ركبتيه ، وألقى برأسه إلى الخلف وأسبل عينيه وراح يفكر فيما آل إليه حاله . كان ناعم البال مطمئن النفس بحسب نفسه طودا عظيما لا ترزعزعه الأهواء ولا تحركه الشهوات ، فإذا به عقب أول اختبار يجد نفسه خبيثة شريرة ما إن تلوح لها بادرة الإثم حتى ترمى فى أحضان المعصية ، لا وازع يزعها ولا

ناهى عنها . ألا ما أضعف الإنسان ! .

ونظر من خلل النافذة المفتوحة فلمح رقعة السماء الزرقاء الصافية الأديم المتراصة أبدا الممتدة أبدا ، فأحس رهبة خفيفة تهز نفسه ، فزفر زفرة ممدودة كأنما يزفر خلجة الرهبة التي انطلقت إلى صدره ، ثم غمغم : « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي » . وارتد بصره يتفحص الغرفة فوق على مصحف قريب ، وما إن رآه حتى قفز إلى رأسه خاطر أن يرى فيه طالعه فيعرف ما ينتظره من خير أو شر ، فتناوله في إجلال وقرأ الفاتحة وهو بين يديه ، ثم فتحه كيفما اتفق وقلبه خافق . وابتدأ يعد سطور الصفحة اليمنى حتى إذا بلغ السطر السابع جعل يقرأ طالعه : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » . وما إن بلغ هذا حتى فزع وأراد أن يتهرب من طالعه ، فهتف بصوت بلغ أذنيه واضحا : « لا . لست من أصحاب النار . فلئن كنت قد أخطأت فإن خطيئى لم يبلغ حد المعصية فلم أرتكب إحدى الكبائر ، وإن الله يغفر ما دون ذلك . لا ليس هذا طالعى ، لا إني لا أجعل لله أندادا ، إن طالعى بعد ذلك دون شك . واستمر يقرأ : « أمّن هو قانت آناء الليل ، ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » . وما إن أتم ذلك حتى هدأت نفسه وقرت واطمأن باله وصفا ، وراح يؤكد لنفسه أن هذا هو طالعه وهو طالع سعيد حقا .

وأقبل الليل وصلاحي جد مسرور ، فقد تصرم النهار ولم يطع أهواءه ولم تضعف عزيمته ولم يستمع إلى قلبه ، ونجح في كبح جماح نفسه فلم يدخل الشرفة اليوم أيضا ليراها . وكان راضيا عن نفسه كل الرضا فما استلزم كبحها

منه جهدا ، وقد أرجع ذلك إلى أن معدن نفسه ممتاز لا تلتصق به الأصداء ، وإن علت به برهة فما أسرع وأيسر أن تزال . لقد خرج من معركته الناشئة بينه وبين شيطانه منتصرا ، وما شك في نتيجة المعركة يوما ولا ساعة .

ودخل فراشه ونام ، وراح في سبات عميق تخلله حلم جميل ، فقد رأى بديعة بجسمها اللدن بين أحضانه وهو يضمها في نشوة وغبطة وسرور . واستيقظ من نومه وتذكر حلمه فاضطرب ، وحاول أن يستأنف نومه دون جدوى فقد سيطرت بديعة على فكره . ودقت ساعة الحائط الثانية وهو يتقلب في فراشه كما يتقلب على الجمر مضطربا يحس اختناق الشهوة المكبوتة . وراح يراود النوم ولكنه فر ونأى وتنهت حواسه جميعا ، فترك الفراش واتجه إلى الشرفة ليستنشق الهواء عسى أن تهدأ نفسه القلقة المضطربة .

خرج إلى الشرفة فألفى السكون قد لف كل شيء ، والهدوء مسيطرا على المكان حتى لكأن حفيف النسيم يسمع ، وكان البدر مطلا على الدنيا ينشر ضيائه الفضي فيقلب الليل نهارا ساعرا أخاذا ، فمد بصره في رهبة وخشوع وراح يدور به في أرجاء المكان ، حتى استقر على شرفتها فأخذ وازداد اضطرابه ، وراح قلبه يقفز في صدره وانتشرت في صدره أحاسيس متباينة متمزجة ، امتزجت الرغبة بالرهبة ، إنها هناك ... بديعة نفسها بشعرها الأسود الذى عجز القمر عن أن يبدد ليله وعليها غلالة شفافة كتلك التى رآها عليها فى حلمه ، وما إن تذكر حلمه حتى اهتز بدنه جميعه كأنما حمى قد سرت فيه ، وخطر له أن يفر من وجهها ولكن تسمر فى مكانه برغمه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان . والتقت العيون فابتدأت مناجاة صامتة هدت كيانهما هذا وأفصحتهما عما يرغبان . وانقضى الوقت وهما لا يشعران فقد كانا غارقين فى نشوة الأحلام ؛ ولم يشعر صلاح إلا وهو يشير لها طالبا موافاته الآن ، وانطلق



بديعة نفسها بشعرها الأسود الذي عجز القمر عن أن يبدد
ليله وعليها غلالة شفافة كتلك التي رآها عليها في حلمه .

ليفتح لها باب مسكنه . وسار على أطراف أصابعه وقد أرهفت منه الحواس ، وراح قلبه يدق دقات عنيفة حتى لخشى أن يوقظ زوجه النائمة ، وراحت زفرات سميرة النائمة في هدوء تصك أذنيه صكاً وهو ينسل من جوار سريرها ، واستمرت طرقات قلبه تدوى في أذنيه كأنما مطارق تدق طبلاً . وبلغ الباب بعد أن بذل جهداً وفتحته في احتراس خشية أن ينبعث منه صوت يوقظ زوجه فيفتضح أمره ، وتم فتح الباب أخيراً فوجد بديعة واقفة على باب مسكنها فأشار إليها في وجل . فأقدمت وكانت أثبت منه نفساً وأرسخ قدماً ، ودلفت من الباب فأغلقه خلفها في رفق ، ثم تناول يدها وقادها إلى غرفة قريبة ، ثم ضمها إلى صدره وبعد لحظات ارتميا على مقعد طويل قريب جسما واحداً . وانتهى كل شيء فانسلت بديعة في خفة إلى مسكنها . وقام صلاح إلى الباب يجر عاره وأغلقه وهو في ذهول عميق ، وعاد إلى فراشه كسير الفؤاد يتساءل عما فعل ، وارتمى في سريرته كأنما أرتمى في أتون من نار فجعل يتفزع ويتأوه . وتحرك ضميره وراح يصرخ : « ضيعك شيطانك فما جنيت ؟ لذة عبرت يعقبها حسرة طويلة وعذاب مقيم ، لقد هويت فحق عليك عذاب الحريق » . واستمر ضميره يخزه وخزا شديداً وهو يتلوى من العذاب ، وضاق صدره فترقق الدمع في عينيه فلم يستطع حبسه فجرى على خديه . واستمر في عذاب حتى ارتفع صوت المؤذن يؤذن بالفجر فأحس كأن صوته نار تصب في أذنيه ، فوضع أصبعيه في أذنيه ليصمهما عن سماع الأذان الذي يزيد من أشجانه ولكن صوت المؤذن كان يقرع سمعه فكأنما شواظ من نار سددت إلى قلبه فأحرقته إحراقاً ، وارتفعت النار إلى صدره فأضنته . وأحس سميرة تنهض من فراشها فأحس عرق الخجل يتصيب منه حتى يغمره ، واقتربت من سريرته فود أن تبتلعه الأرض قبل أن تمسه ، ولكن يد سميرة لمست كتفه في رفق وهمست في حنان :

— صلاح .. صلاح انهض قد أذن المؤذن .
فهم بأن يصيح فيها أن تبعد عنه وألا تلمسه ، ولكن صوته انحبس ولم يجد
مخرجا . فعادت تهزه وتهتف :

— صلاح .. صلاح .. قم . الصلاة خير من النوم .
واقتربت بوجهها من وجهه فلمحت دموعه تجري على خده ، فهمست
في فزع :

— صلاح ، ما بك ؟ أتبكي ؟ .. قم يا حبيبي .
— دعيني .

— ما بك يا حبيبي ؟
— رأيت رؤيا مفرعا ، رأيت نفسي أطرده من الجنة .
— أضغاث أحلام .

— لا يا سميرة ، هتف لي هاتف : « تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب
النار .. تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » .
فضمته سميرة إلى صدرها في حنان وقالت :

— لا يا صلاح ، إنها وسوسة الشيطان ، تعوذ بالله منه وقم يا حبيبي .
ونهض صلاح ليغتسل من إثمه ، وانطلق حزينا كئيبا يحتقر نفسه ويعجب
لضعفه . وسمع صوتا آتيا من أغوار نفسه كأنه همس ينبعث من مكان سحيق ،
ولكنه بلغ أذنيه واضحا قويا وانساب فيهما عذبا نديا :
« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

فتمتم والدموع تخضب وجهه : « اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك » .

على القبر

(همزات الشياطين)

بلغت الجنازة المقبرة ، فوضع الرجال المأجورون النعش على الأرض
وتنفسوا الصعداء حمدا على وضع ذلك الحمل عن كواهلهم ، وانحط الناس
على الكراسى المبعثرة هنا وهناك حول القبر وأنفاسهم مبهورة وعرقهم جار .
ونظروا إلى القبر الفاجر فاه الكريه ليزدرد فريسته ويغيبه في جوفه الموحش
البغيض إلى الأبد نظرة بلهاء عابرة ، كأنهم لا يقدرّون بشاعة ما يرون وكأنهم
لا يردون المكان غدا أو بعد غد .

وأخرجوا مناديلهم يجففون بها عرقهم ويروحون على وجوههم ، وبان
الترم والضيق على وجوه الجميع فلولا الحياء ما جاء أحد لتشيع الفقيد
الشاب . وما إن وضع النعش على الأرض حتى أسرع أولئك الذين يتعيشون
من قبر الناس إلى النعش خفاقا لا تحتلج في نفوسهم خلجة ولا يدب في
صدورهم رهبة بل منفرجة أساريرهم بعض الفرجة فقد كان يومهم يوم يمن
واقبال ، فهذا ثالث من يقبرون اليوم ولما يتتصف النهار . وأخذ كبيرهم يفكر
في أثناء عمله ويتذكر على وجه من من أهل بيته فتع عينيه في هذا الصباح
المبارك الذي كثر فيه الخير ليكلفه بإيقاظه كل يوم ، عسى أن تصبح الأيام يسرا
كلها إقبالا كلها . وتذكر اقتراب العيد وهو موسم خير عليه وعلى أمثاله فأهل
الموتى يغمرونهم بالفطير والنقود ، فالتمت عيناه سرورا .

ورفع غطاء النعش وحمل الميت المكفن في أدراج من حرير ليغيب في
التراب ، وتطلع كبيرهم إلى الغطاء الملفوف به الميت وفحصه بنظره فحصى
خبير مثنى فطابت نفسه ، فقد كان الغطاء جديدا لم يستعمل بعد . إن الفقيد
عزيز على أهله ولا شك ، ولكنه ما كان ليتغطى في حياته بمثل ذلك الغطاء

الفاخر الذى كفن به . إن أهله لم تنسهم الفجيعة فيه حب الظهور أمام الناس بمظهر الغنى والترف ، فلفوه فى أفخر غطاء فى الدار كانوا قد ادخروه لمثل هذه المناسبات بلا مراء .

وأسرع المقرئون إلى حصير بال وضع بالقرب من فوهة القبر وجلسوا عليه ، وأخذت ألسنتهم تدور فى أفواههم دورانا سريعا وأعجازهم تهتز اهتزازا متتابعا ، وأخذوا فى تلاوة القرآن بصوت يرتفع فى نهاية كل آية وينخفض فى بدايتها ، وكانوا فى تلاوتهم كأطفال يرتلون القرآن فى كتاب . وما كان هذا ليحتاج منهم إلى كبير عناء فقد كانوا يؤدون نفس العمل مرارا وتكرارا صباح مساء ، حتى صاروا آلات صماء لا يفقهون مما يقرءون شيئا . وكان الخاطر الوحيد الذى يحتل فكرهم إذا ما دعوا إلى العمل إن كان هذا يعد عملا ، تكهنهم بمقدار ما سينقدوته على الخدمة الجليلة التى قدموها للفقيد ، يأخذون فى التفكير فى أى وجه من وجوه الإنفاق العديدة ينفقونه . إنهم وأهلهم فى احتياج إلى أشياء كثيرة ، ولكن حاجة بطونهم أولى بالتقديم فيفكرون فى كم رغيفا يشترون ؟ وما هو الغموس الذى يستحسن أن يأخذوه ؟ ويتذكرون ما أكلوه فى أمسهم حتى لا يأخذوه فى يومهم . ويستمر الطعام يلوح لهم وهم يرتلون القرآن إلى أن ينتهى الدفن بسلام .

وارتفع صوت المقرئين يلقنون الميت : « وستعلم يا عبد الله أن الموت حق ، وأن الجنة والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ... » ، فأفاق الناس قليلا وقطع حبل تفكيرهم ، ولكن سرعان ما أظرقوا ووصلوا ما انقطع من تفكيرهم ثم غاصوا حتى غرقوا فى خضم الآمال والأحلام .

وفى ناحية من المكان جلس ثلاثة من أصدقاء الفقيد مطرقين إذا رأيتهم

حسبتهم على الفقيد محزونين ، وإذا اطلعت على أفكارهم رأيتهم في شئونهم يتفكرون وبآمالهم يتعلقون ، كأنما الميت الذى لم يقبر بعد لم يكن مثلهم بالأمس القريب يتعلق بالأحلام ويفرح بالأوهام .

أطرق أحدهم وكان شابا فى مقتبل العمر كالفقيد ، فسبح به الخيال إلى جارته الحسنة فتذكر كيف أطلت عليه ليلة أمس كالبدر المنير ، فأشار لها كما تعود أن يشير طالبا منها أن تقابله فى السابعة من مساء الغد فلم ترد على إشارته وما كان الصدم من شيمتها ، فأخذ يشير ويطول ويقصر ، وأخيرا ظن أنها لم تفتن لوجوده فأصدر صوتا خافتا ولكنها لم تلتفت إليه ، فرفع صوته بالغناء : « يا جارة الوادى ... » ففرت من النافذة لا تلوى على شيء . فعجب من تصرفها ، فما بال محطة الاستقبال لا ترد على محطة الإرسال اليوم وعندها أنها تقف لاستقبال الإشارات ولإرسالها ساعات دون كلل أو نصب . ترى ما دهاها وما أغضبها ؟ لم يفطن إلى شيء فهز كتفيه ، وأدار ظهره ليخرج من الشرفة فرأى نفسه أمام أمه وجهها لوجه ، فقد كانت فى الحجرة ترقب ما يحدث . وتذكر موقفه من أمه فكادت الابتسامة تفر من شفثيه وهو بجوار جثمان الفقيد العزيز ، فأسرع ووضع منديله على فمه وخنق تلك الابتسامة الوقحة التى كادت تولد على شفثيه فتفضح دخيلة نفسه . وتكمل فى كرسيه وأدار عينيه فى المكان ثم أطرق واستأنف تفكيره فى الجارة الحسنة . لقد تواعدا على اللقاء الليلة وما دار بخلده أن صديقه يموت اليوم . أيحول موت صديقه دون مقابلتها ؟ أينبغى أن يكون فى المآتم قبل الناس جميعا ؟ ولم يحى أهل الفقيد ليلة مآتمه ؟ أما كان الأجدر بهم أن يقصروا العزاء على الجنازة فيريحوا الناس ويريحوا أنفسهم ؟ ! إنه لا يقدر على أن يخل بوعده فإن أخل بوعده أغضبها ، فليذهب للقائها فالخى أفضل من الميت ، ولكن ما



فسبح به الخيال إلى جارته الحسناء
فتذكر كيف أطلت عليه أمس كالبدور المنير

يقول أهل الفقيد إن اختفى ولم يظهر في مأتم صديقه ؟ لا بد من الذهاب هذا هو الواجب وما أثقله من واجب ؛ لا بد من الذهاب إلى المأتم ولا بد من مقابلة حبيبة القلب . فليقابلها أولا وليتوجه إلى المأتم عقب انصرافها وليقل أهل الفقيد ما يقولون ، أفلا يكفهم أنه لبس رباط رقبة أسود حدادا على الفقيد ، وسار تلك المسافة الطويلة خلف نعشه في هذا الجو الحار البغيض ؟ إنه أدى الواجب نحوهم وزيادة فليؤد واجب قلبه . وأقنعه منطقته هذا فأخذ يفكر فيما يقول لها وفيما يفعل لإرضائها وكسب ودها .

* * *

وجلس بجواره الصديق الثاني وكان بدينا ، فبرز أغلب جسمه من الكرسي الجالس عليه وبان الكرسي تحته كدمية من دمي الأطفال . وأطرق يفكر فيما فعله في الصباح فقد ترك الدار وانطلق إلى السوق ليشتري دجاجتين يطبخ عليهما مملوخية . إنه يحبها ويطبخها ما دامت موجودة أكثر من مرة في الأسبوع ، وإنه ليطبخها بالدجاج في أول كل شهر . وراح يذكر ما دار بينه وبين بائع الدجاج من نقاش ، فقد كان الرجل وقحا لا يبيع ولا يشتري إلا بعد أن يسب الدجاج ويلعن بائعيها وآكليها مئات المرات . فما قلب الدجاج بين يديه وما انتهى من اختيار اثنتين حتى سألته عن ثمنهما ، فطلب الرجل ثمنا غاليا ، ثمنا لا يطلب إلا في أوزتين عتقتين . فذكر هو ثمنا معقولا ، فما كان من البائع إلا اختطف الدجاجتين من يده بشدة وهو يصيح : « مالكم وأكل الدجاج ، كلوا طعمية ، كلوا فولا نابتا » . تذكر الصديق ذلك وهو جالس بجوار القبر فأحس بدمه يصعد إلى رأسه ووجهه ، وراح يعجب في نفسه كيف قبل هذا القول من البائع السفيف ، وكيف تركه وانسل دون أن ينبس بكلمة زجر كأنما قد أتى شيئا نكرا ؟ أما كان الأجدر به أن يلقنه درسا لا ينساه ؟ ولكن ما يدريه

أن الرجل كان يقبل منه الزجر دون أن يزود عن نفسه فيتراشقان السباب ، وقد يتطور الأمر بينهما فينشب شجار قد ينتهى بتمزيق ملابسه ، بل قد ينتهى بتمزيق جسمه . وما إن بلغ هذا الحد من التفكير حتى ظهر عليه الضيق . وأراد أن يتخلص من وطأة هذه الأفكار الجاثمة على رأسه فأخذ يفكر فى الدجاج والملوخية المنتظرانه ليلتهما عقب انتهاء الدفن . إن زوجه الآن فى المطبخ ، وإن رائحة التقلية لتفوح على الجيران معلنة أن هنا موظفا فى أول الشهر . وما إن تذكر التقلية حتى تحلب فمه واختلس نظرة إلى الساعة التى فى معصمه فأيقن من اقتراب وقت الغداء ؛ وتذكر أن فى طريق عودته من المدفن إلى الدار بائع مغلل ممتازا لما اشترى منه مخللا كلما مر عليه ، فعزم على أن يشتري منه اليوم عقب انتهاء الدفن الذى طال .

* * *

وغرق الصديق الثالث فى بحر من الأفكار وكان محزونا حقا ، فكان وجهه باسرا وعيناه مسبلتين وخده على يده والزفرات المحزونة الشديدة تنطلق من أنفه عالية مسموعة مخففة بعض الشيء عن ذلك الكرب الذى يضغط على صدره حتى ليحس أنه يكاد يخنقه ويكتم أنفاسه ، وأخذ فى وضع رجل على رجل ثم مالبت أن أنزل الرجل الراكبة ليضع عليها الرجل الأخرى . وما استقر قليلا حتى بدل رجله فأنزل واحدة وأركب الأخرى ، وما استقر أبدا فكان بادى القلق كثير الاضطراب . كان حزنه لفقد الفقيد عظيما ، فقد مات وفى ذمته خمسة جنهيات لم يسدها بعد ، كان قد استدانها منه على أن يسدها فى أول الشهر عند القبض ، ولكنه قبض قبل أن يقبض . إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الجنهيات فراح يفكر كيف يستردها . أيتها من أهل الفقيد صراحة ؟ وإذا طلبها ألا يتهم بقلة الذوق ؟ ومتى يطلبها غدا أو بعد غد أو بعد الأربعين ؟

وإذا طالبهم بالدين وطالبوه بالصك الذى يثبت الدين ولا صك عنده ، فدا يكون جوابه ؟ أيقول لهم إنه اعتاد أن يعطيه ويأخذ منه بلا كتابة ؟ وإذا قال لهم ذلك ألا يظنون به الظنون فيورد نفسه موارد الشبهات ؟ ولم لا يظنون أنه هو المدين لا الفقيد إذا كانا قد اعتادا الاستدانة والسداد بلا كتابة أو ما يثبت الدين ؟ أوصول بهم الأمر إلى أن يشكوا فيه ؟ فيه هو الذى كان صديق الفقيد لا يفارقه ؟ من يدريه أنهم لا يرتابون . أمن الأفضل أن يلمح لهم تلميحاً فإن فهموا وسددوا كان خيراً ، وإن تغاضوا وتغابوا فليعوضه الله خيراً ؟ ولكن ما ذنبه وما جريرته ؟ ولم يضيع حقه وكل ما جناه أنه فك ضيق الفقيد ولم يطلب منه صكاً يثبت حقه . أكان من الواجب أن يطلب صكاً ؟ ومن كان يظن أن الشاب القوى المعافى يموت قبل أول الشهر ؟! أيرسل لهم رسولا يطالبهم بالدين حتى لا يقف موقف المطالب الذى ينجله ويخرج إحساسه ؟ ولكن كيف يرسل رسولا إلى أهل صديقه ليطلبهم بدين له ؟ واستمر الصديق الثالث نهياً لأفكاره لا يقر له قرار ولا يستقر على حال .

واستمر الناس فى إطرأهم ينتقل بهم فكرهم من مكان إلى مكان وهم يسبحون فى بحور الخيال . وتم دفن الفقيد وأهيل التراب على قطع الحجارة التى سدت منزل القبر ، وجاء حاملو الماء وأخذوا يرشونه على القبر وصاح أحدهم : « وحدوه » . فأفاق الناس من غشيتهم وهمهموا بصوت فى نعاس : « لا إله إلا الله » . وعلموا أن الدفن قد تم فقاموا عن مقاعدهم ، وانطلق الأصدقاء الثلاثة إلى حيث وقف أهل الميت ووقفوا بجوارهم يتلقون العزاء ، وتم كل شئ وانصرف الناس وما فكر واحد قط أن اليوم يوم الفقيد ، وأن يومه هو فى الغد القريب .

العجلة تدور

عاد مع الليل منهو كما محطما فخلع ملابسه في تراخ ظاهر ولبس منامته ، ثم تناول عشاءه ، وأحس بأعضائه تسترخى فدخل حجرته واستلقى على مقعد طويل ليريح جسمه المكدود الذى يحن إلى الراحة . وما إن استقر جسمه حتى أحس خدرا لذيذا وركنت كل أعضائه إلى هدوء شامل ، إلا فكره فإنه لم يستسلم للراحة على الرغم مما يعانيه من نصب بل راح يعمل كما يعمل دائما ، وإنه لا يذكر أنه فتر مرة وأراحه بل كان دائما يرضيه ، وإنه ليحسب أنه يعمل حتى في نومه فإنه ما كاد يغمض عينيه ويغيب عن عالمه ويستسلم للذيذ الرقاد حتى يدخل في عالم الأحلام فما ينتهى من حلم حتى يتدبى في حلم آخر . وأطفئت الأنوار جميعها ولم يبق في الشقة إلا نور خافت منبعث من مكان قصى يترك مضيئا طوال الليل ليسترشد به من يقوم بالليل ، ودخل كل حجرته فساد المكان هدوء شامل ، وبقي هو ممددا على مقعده مرخيا لخياله العنان فراح خياله يستعرض ما فعله طوال اليوم ، فرأى نفسه لم يفعل إلا ما يفعله كل يوم ، خروج مع الشمس وعودة مع الليل وكد وتعب وعمل مضن متواصل . إنه ليذكر أنه قارف ذلك العمل القاتل منذ سنين ، فما انقضى العمل وما انتهى الأمل ولا لاح الهدف . ترى هل يضرب على غير هدى ويهدف إلى لا شيء وينطلق في طريق ليس له نهاية ؟ إنه ليذكر أن آماله يوم نزل إلى ميدان العمل كانت آمالا متواضعة فما كان يطمع في أكثر مما يضمن له عيشة راضية . فلما حصل على ما يحقق له ما تمنى ، ولما اقترب مما حسبه نهاية أطماعه ، تضخمت آماله وسبحت أحلامه وبعدت أهدافه فانطلق في أثرها يلهث كما يلهث الكلب المنطلق في أثر صاحبه الذى ينهب الأرض بسيارته .

إنه كلما طوى جزءاً مما يفصله عن هدفه بعد هذا الهدف بمقدار ما طوى ، فلا أرضاً قطع ولا أملاً حقق ولا نفسه أراح . قد شدته آماله إلى عجلة الزمن وراحت تلهبه بسياطها فيدور كما يدور الثور في الساقية . لقد خدعته آماله الكواذب فجعلته يغذ في السير في إثر سراب . إنه ينطلق منذ سنين وإنه لا يزال ينطلق فما بلغ ما يريجه ولا ما يرضى أحلامه . وإنه سينطلق غداً وبعد غد ولن يصل إلى هدفه أبداً وإن ما يصبو إليه خيال في خيال ، وإلا فما نهاية هذا السعي المتواصل والتعب المتتابع والتكالب على الدنيا ؟ ما نهاية كل هذا ؟ أجل ما نهايته ؟ وهل يحتاج معرفة نهاية هذا تساؤلاً واستفساراً ؟ إنه أمر معروف والخاتمة واحدة متكررة ؛ سيمضي نهاراً لا يمضي نهاراً على وجه الأرض بعده ، ويقضى ليلاً لا يقضى ليلاً بعده إلا وهو في بطن الأرض مغيب ، فتموت آماله بموته وتنقضي أحلامه بانقضائه . ولكن أيموت حقاً هو الذي لا يطيق السكون ، والذي إذا مرض لا يطيق الرقاد ، والذي يملأ الدنيا حركة وحياة ينتهي به الأمر إلى أن يرقد ساكناً إلى الأبد ؟ فما أئفه البداية وما أبشع النهاية ! .

ولفحه الهواء المتسرب من النافذة المقابلة له فأحس برودة تسرى في جسمه ، فنهض وأغلق النافذة واتجه إلى سريره وتمدد وأغمض عينيه محاولاً أن يغرى ملاك النوم بتطويقه وضمه إلى صدره الحنون ليريجه من أفكاره . لكن أفكاره أخذت تهاجمه فألقى نفسه يفكر برغمه ؛ إنه سيموت وسيصبح بين غمضة عين وانتباهتها ذكرى تروى . إذا ما تحدثوا عنه تحدثوا عن المرحوم في خشوع ، وإذا ذكر اسمه ترحموا عليه ، ولكن حتام يذكر ؟ إنه سيدكر لبضع سنين ثم تموت ذكراه كما مات فلا يعود يذكره أحد أو يحس إنسان بأنه كان هناك . فما أبشع الدنيا ! أينقضى كما ينقضى حلم قصير دون أن يشعر به

أحد ، أو يسقط وتستمر عجلة الزمن في دورانها دون أن تحفل بسقوطه ، أو تقف هنيهة لتلتفت إلى ذلك البائس الذى هوى ؟ ولكن متى حفلت عجلة الزمن بالمناكيد الذين تطويهم طيا ؟ إنه ليذكر يوم مات أبوه وكان هذا أول عهده بالموت ، فقد مات في أول الليل وكانت ليلة حالكة الظلام ، وما كان في السماء نجم واحد يتلألأ ، فحسب الكون شاركههم حزنهم وارتدى ثياب الحداد مثلهم ، وظن أن النجوم اختفت حزنا مشاطرة لهم في أتراحهم ، وحسب أن عجلة الزمن قد كفت عن الدوران ، وأن هذا الليل ليس له نهار . ولكن طلع النهار فروّعه طلوعه فما كان يظن أنه يطلع . أتبرغ شمس بعد موت أبيه ؟ ؛ لقد كان يحسب ذلك محالا ، وانطلقت العصافير الساكنة في الشجرة الكائنة تحت نافذتهم ترقز كل يوم ، وتنتقل من فنن إلى فنن ، وتنفض أجنحتها الدقيقة في سرور فما أحست مصاب جيرانها . ودبت الحياة في كل شيء إلا في ذلك الجسد العزيز المسجى ، وباليتهما ما دبت إلا فيه ، وسار كل شيء كما كان يسير فما لبس الكون ثياب الحزن لما ارتدى رداء الليل كما ظن ولكنه لبس ثياب السهرة ، فلما انقضت السهرة بأفراحها وأتراحها وأسرارها وعلايتها ، خلع الليل ولبس النهار كما تعود أن يفعل كل يوم ، فما شعر الكون بشيء ، ولم يبق إلا أصحاب ليشاطروهم أحزانهم . وانتظروا موافاة أصحاب بعد أن أعلن المصاب الفادح وطال انتظارهم ، ولكن أصحاب كانوا هناك في الحدائق يلعبون ويشربون ويأكلون ويضحكون ، فقد كان اليوم يوم شم النسيم ، وما خطر المصاب على قلبهم إلا بعد أن عادوا من رحلاتهم في المساء ففكروا في العزاء . إنه ليذكر كل هذا كأنما وقع الساعة ، وإنه ليذكر أباه كطيف مر به ، وإنه ليذكر تلك السنين الطوال التى قضائها مع والده قبل أن يمضى كما يذكر قصة قرأها في كتاب ، أهذه هى

الحياة ؟ فما أشقى الإنسان !

وحاول أن ينام وأن يبعد تلك الخواطر التي احتلت فكره ، وتقلب في فراشه وأخذ يحاول أن يركز تفكيره في موضوع آخر ، وكاد ينجح في أن يوجهه وجهة أخرى ولكن ارتفعت دقات ساعة الحائط فكان رنينها في أذنيه كنعيب الزمن . فألقى نفسه يفكر فيها ويخاطبها بصوت كان يصل إلى أذنيه واضحا على الرغم من أن شفتيه ما تحركتا ولا اختلجتا خلجة : إيه يا ناعيات الزمن ألا تكفى ؟ ولكن لم تكفين ؟ وما يهم وقوفك أو دورانك إذا كانت عجلة الزمن تدور ؟ إيه يا مسكينة ! إنها ستطويك كما تطوينا وإنك مسخرة كما نحن مسخرون وإنك ستنتهين كما سنتهى . أجل سنتهين فلا تفرحى فإنك تنعين نفسك كما تنعيننا . ولكن ترى أتفهمين ؟ لا أظن فهنيئا لك ويا بؤس لنا .

إننا نعلم النهاية ولكن ما أسرع ما ننساها ونغفل عنها فنتنافس ونتطاحن ، ونتباغض ونتشاحن ، ونتضارب ونتقاتل ، ونمشى على أجداث ضحايانا مزهوين نكاد نبلغ الجبال طولا ، ناسين أننا عما قريب سنصرع ، وفي جوف القبر الموحش سنغيب . ويا ليت القبر هو النهاية فإنه سيندثر على مر السنين كما اندثرنا ، وسنصبح ترابا تذروه الرياح كما أصبح الذين خلوا من أسلافنا ، وإلا أين أجسام البشر من يوم خلق الله الخلق ، أين ذهب ؟ » .

وأحس رأسه يكاد يتفجر فتقلب كما يتقلب على الجمر ، وتناول الوسادة من تحت رأسه ووضعها فوقه وراح يضغطها بيده كأنما يحاول أن يخمد تلك الأفكار التي أزعجته ، ولكن تنبهت حواسه كلها واستمر فكره يعمل فرفع الوسادة وأعادها سيرتها الأولى تحت رأسه واستلقى على ظهره وثبت عينه في سقف الغرفة . وجال في نفسه خاطر ؛ من يدريه لعل حوائط حجرته كانت في سالف الزمان أجسام أناس مثله كانت لهم آمال كآماله ، وأفكار تورقهم

كما تؤثره أفكاره ، وهو اجس تهجس في صدورهم كما تهجس الخواطر في صدره ، وآلام تعذبهم كما تعذبه آلامه ، وأفراح تسرهم كما تسره أفراحه . فلئن كانت حوائط حجرتة في يوم من الأيام بشرا يسعى ، إن جسمه سيصير بعد آلاف السنين حجرا ، أو ينقل إلى حقل من الحقول سمادا فيمتص الزرع جسمه ويأكله الناس وفيه منه ما فيه ، كما يأكله هو الآن وفيه منه ما فيه من أجسام من سبقه ، فيا لشقاء الناس يأكل كل سلفه .

واستمر فكره يعذبه ، وأخيرا تعطف ملاك النوم فمس بأنامله الرقيقة جفنه فراح في سبات عميق ، ولكنه ما لبث أن رأى فيما يرى النائم مكانا فسيحا فخما ما رأى في الدنيا مثله قد غطي بزرع أخضر بهيج ، وقد تفجرت الأنهار خلاله تفجيرا ، وانتثرت فيه أرائك من بلور مصفى لا يحجب ما خلفه ، وعلى تلك الأرائك أطياف تشع أضواء فضية كأنما كل منها بدر منير .. وكانت الوجوه راضية مطمئنة كلها وضاعة وكلها سعادة . وألقى نفسه على أريكة من الأرائك وبجواره وأمامه أطياف تتطلع إليه في حنان ، فراح ينقل بصره فيها وقد بان الدهش في وجهه ، ولكن لم يحس رهبة ولا فرعا فقد كان مطمئنا لمكانه تغمره نشوة وسعادة . ولكنه كان يحس رغبة في معرفة هؤلاء الذين يشاركونه مجلسه ، فالتفت إليه الطيف الجالس بجواره وسأله :

— من هؤلاء الذين أسعدني الحظ بمجالستهم ؟

— إننا أرواح تلك الأجساد التي يتكون من بعضها حوائط حجرتك

— أزواح حوائط حجرتي !

— أجل .

— وما جاءني إلى هنا ؟!

— رأينا ما اعتراك من فرع لما فكرت في الموت فأشفقنا عليك ، وأردنا أن



وألقي نفسه على أريكة من الأرائك وبجواره
وأمامه أطياف تتطلع إليه في حنان

نعيد إليك روعك .

— أتود ألا أفرع لذكر الموت ؟!

— ليس الموت بتلك الصورة البشعة التي صورها لك خيالك .

— ليس الموت بتلك الصورة البشعة ؟

— أجل .

— وهل هناك أبشع من الفناء ؟ إننا ستنبخر كما يتبخر الماء ونصبح لا

شيء . ستندثر أجسامنا ونضيع في ذلك الكون العريض .

— وما أجسامكم ؟ هبها اندثرت وضاعت كما تقول فما قيمة كل هذا ؟

— ما قيمة كل هذا ؟! سنصبح لا شيء ، سنصبح كأن لم نكن بالأمس .

— بل ستصبح كل شيء ، ستحرر من سجن الجسد ، وستهم في كل مكان

بلا قيد ، وستنفذ إلى الحقائق في يسر ، ولن تعوقك عوائق المكان ولن يقيدك

الزمان بقيوده .

— إني لا أفهمك .

— ما أيسر ما أحدثك به ، أما خلعت رداء وألقيته ؟

— أجل .

— وهل أحس الرداء شيئاً ؟

— وهل كان الرداء يحس ؟

— إن مثل أجسامكم كمثل الرداء ، فإذا ما صعدت الروح إلى عالمنا

أصبح الجسد كرداء خلع وألقى . أفتحس شيئاً إذا ما مزق الرداء أو أصابه

العدم ؟ أتذكر كم من الأردنية أبلت ؟ أتعرف ما مآلها وما صارت إليه ؟ لم تهتم

بالجسد كل هذا الاهتمام كأنما الجسد هو كل شيء ؟ إذا ما صعدت روحك إلى

عالمنا فلن تأبه بجسدك ولن تلتفت إليه ، بل ستشعر براحة لخروجك من

سجنه ولتركك ذلك العالم الحبيس إلى عالم واسع عريض .

— أفرح لترك عالمنا الضيق ؟ ومن قال إنه ضيق ؟!

— إنه أضيق من سم الخياط كما تقولون ، فإنك لا ترى منه على ضيقه إلا رقعة محدودة ، ولا تعلم من أمره إلا قليلا ، ولا تنفذ بصيرتك إلا إلى ما تلمس من الأشياء ، ولا تعرف من شئونك إلا ما يقع لك في ساعتك . أما ما يصيبك غدا ، وأما ما ينتظرك من خير وشر ، وأما مالك وما تصير إليه فهو المجهول الذى تتشوقون إليه وتتمنونه وتتحرقون شوقا إليه . وما أنفه ذلك المجهول لو كنتم تعلمون . إننا هنا نرى أماننا ماضيكم وحاضركم ومستقبلكم وما كتب لكم . ولكم نشفق عليكم ونضحك منكم أحيانا ، ولما فرى الفرع الذى يصيب أحدكم عندما يقع فى ضيق ، فإننا نرى الفرع منه قريب وهو يائس ساخط يندب حظه ، متبرم بالحياة يحسب أن قد كتب عليه الشقاء . فلو أن بصيرته كانت تنفذ إلى عالم الغد كما تنفذ بصائرنا لما فرع ولا ققط ، ولا نطلق فى طريقه المرسوم راضيا حتى تنقضى مدة سجنه الجسدى . ولكم نرثى لكم عندما نرى أحدكم وقد نال فوزا قد شمع بأنفه ، وحسب الدنيا ما خلقت إلا له فسار مختالا فخورا ، وأغذ ليجمع الدنيا إليه وما رأى أن الهاوية تحت قدميه إذا ما خطا خطوة تردى فيها .

— يا لحقارة الحياة ويا لشقائنا ! لم لا نعيش فى وئام وسلام ما دامت الحياة لهوا وغرورا ؟ لم نسرف فى الأحلام إذا كان مآل هذه الأحلام الذبول ؟ لم نتكالب على الدنيا ونقبل عليها إذا كانت عنا معرضة ، ومنا ساخرة هازئة ، وعليها ضاحكة مقهقهة ؟ إنها لتغرنا كما غرت من قبلنا ، وإنها ستطويننا كما طوت من سبقنا ، فلم نأمن ونركن إليها ؟ لم لا نحذرهما حتى يوافق الأجل ؟

— إنها سنة الحياة ولن تجد لسنة الحياة تبديلا .

(همزات الشياطين)

— إني أملك ما يكفيني ، فسأنزوي بعيدا عن معمعة الحياة لأمضي بقية أيامي هائثا سعيدا .

— لن تستطيع ؛ إنك تطلب محالا .

— وما استحالة ذلك ؟

— سيجرفك تيار الحياة وسيلقى بك في بحرها المتلاطم ، فترضى حيناً وتمتعض أحيانا ، وستستمر المعركة بينك وبينها فتصرعها مرة وتصرعك مرات إلى أن تلحق بنا حيث الدعة والسعادة والاطمئنان والهدوء . واستمر غارقا في نومه حتى رن رنين المنبه فهب مذعورا وأسرع ليرتدى ملابسه ، وكان ينظر إلى الساعة من وقت إلى آخر خشية أن يتأخر عن عمله وكأثما نسي حلمه وما فكر فيه في أمسه ، ولما تجهز خرج ليشد إلى عجلة الزمن الدائرة أبدا ، المنطلقة أبدا .

لَوْحُ اللَّهِ

جلست فاطمة على الأرض وقد ساد القاعة التي تسكنها ودجاجها وعنزتها
سكون قاتل وظلام دامس ، ولولا النور الخافت الباهت المنبعث من الذبالة
الموضوعة على الفرن والمنعكس على صفحة وجهها السمراء لحسب المكان
قبرا مهجورا ؛ فقد كانت العنزة ترقد في ركن لا يصل إليه الضوء ، وكانت
الدجاجات قد استقرت فوق قفص كبير وقد لفت أصابعها فوق جريدة
وأغمضت أعينها ، وكانت فاطمة مطرقة ساهمة وقد ارتسم الألم على وجهها
وبان الحزن في عينيها وامتلاً صدرها حقدًا وغلا ؛ فقد قتل زوجها منذ أيام وهو
عائد من الحقل عند الجسر وإنها لتعرف قاتله ، ولكنها لم ترشد المحققين إليه
لأنها تود أن تنتقم لزوجها بنفسها . وأخذت فاطمة تفكر فلم يزددها تفكيرها
إلا حزنا ، فإنها امرأة لا أهل لها ولا ولد ، فلو أن لها ولدا لصبرت حتى كبر ثم
أغرته بقاتل أبيه فيقتص له منه وينتقم لدمه المهدور . إنه لما ينغص عيشها أن
ترى قاتل زوجها يغدو ويروح تحت بصرها وهي لا تفعل شيئا ولا تحرك
ساكنا .

واستمرت فاطمة تفكر وقد طفح المقت على وجهها فضاقت حدقتا عينيها
وبرز عظم فكها وانطبقت شفتاها في قسوة . إنها لا تطيق الصبر .. وعلام
تصبر ؟ قتل زوجها وليس له من يطلب بدمه غيرها ، إنها لن تستريح ولن يهدأ
لها عيش حتى ينال القاتل جزاءه وحتى يلاقى حتفه . ولكن ما تفعل امرأة لا
ولد لها ولا مال عندها ؟ لو أنها كانت غنية لما استعصى عليها الأمر فإن بضعة
جنبيات تدفعها إلى سرحان لكفيلة بإنجاز كل شيء على ما يرام . وتشبثت
فاطمة بالفكرة الطارئة ، فليس لها إلا سرحان ، ذلك الرجل الذي يكرى

لقتل الناس . ولكن ما تدفع إليه وهي لا تملك من حطام الدنيا شيئاً ، إنها منكودة تعيسة . ومشى إليها اليأس فأحست تبرماً ، وقامت تدور في القاعة لتنفس عن صدرها ما يكرهها فاصطدمت رجلها بعنزتها القابعة في مرقدها فالتفت في مخيلتها فكرة أرضتها بعض الرضا . لم لا تبيع عنزتها غداً وتقدم ثمنها إلى سرحان ليقتل لها غريمها ؟ وهل يرضى سرحان أن يقدم على القتل لقاء هذا الأجر التافه ؟ ولم تشأ أن تكدر نفسها فجعلت تعللها بأنه سيقبل . فما الذي يخسره إذا ما قتل لها قاتل زوجها !

وأرادت فاطمة أن تنام ولكن طار النوم وأرهفت منها الحواس وجاشت في صدرها رغبة قوية لم تستطع لها دفعا . إنها لتود أن تنطلق من فورها لتقابل سرحان ولتقص عليه ما وطنت عليه العزم ولتسمع منه القبول أو الرفض ، فإنها لا تطيق الصبر وهذه الرغبة تقلقها وتؤرقها . وحاولت أن تكبح زمام نفسها وأن تقاوم رغبتها في الخروج ولكن رغبتها غلبتها . فنهضت واتجهت نحو الباب ، وقبل أن تفتحه خطر لها أن تأخذ عنزتها معها ، فلعل سرحان يقبلها منها الليلة فتحقق أمنيتها ويتم بينهما الاتفاق المنشود . فاتجهت إلى عنزتها وسحبها من مقودها وفتحت الباب ثم خرجت تضرب في سواد الليل إلى دار سرحان .

اقتربت فاطمة من دار سرحان فسمعت ضربات قلبها تدوى في أذنيها ، وأحست رعدة خفيفة تسرى في بدنها . وهمت بطرق الباب ولكن توقفت يدها لحظة واضطرب نفسها وفكرت في الأوبة تنتظر الصباح ، ولكن رغبتها شدت من أزرها وهزمت ترددها فدقت الباب دقات ، وانقضت مدة حسبتها فاطمة دهرًا . وفتح الباب وظهر رجل صارم النظرات قبيح القسمات قصير القامة نحيل الجسم ، فلما رأى فاطمة قال بصوت أجش :

— ماذا تريدین ؟

فاحتبست الكلمات فى خلق فاطمة ولم تدر ما تقول بل دفعت إليه بعزتها ، فظهر فى وجهه التساؤل فقال :

— ما هذا ؟

وسكن روع فاطمة قليلا وعاد إليها بعض هدوئها ، فقالت فى صوت مضطرب حزين :

— جئت إليك أرجو عونك وأطلب إحسانك .

— ماذا تريدین ؟

— قتل محمود عبد العاطى زوجى وهو عائد من الحقل عند الجسر لمشجرة شجرت بينهما وليس لى من يأخذ بثأره ، فلم أجد إلا أن ألتجأ إليك ولكنى لا أملك إلا هذه العنزة ، فهل لك أن تجبر خاطرى وتقبلها منى ؟ وتطلعت إليه فى لهفة تنتظر ما ينطق به ، فقال فى عبوس :

— خذى عنزتك وانصرفى .

فاغرورقت عيناها بالدمع وقالت فى صوت خنقته العبرات :

— أترفض لفقرى ؟ والله لو كنت أملك شيئا آخر ما تأخرت عن تقديمه ، فأنى لا أرجو من دنيائى إلا قتل محمود :

— خذها وانصرفى .

لقد أضرب على الرفض فلم يسعها إلا أن تجهش بالبكاء ، فقد انهار الأمل وضاع الرجاء . وكان سر حان يفحصها فألقى بؤسا وفقرا ، ووقعت عيناه على دموعها المنهمرة على خديها فتحركت فى نفسه عاطفة ما كانت لتتحرك فقال :



وقدم محمود فصوب إليه بندقيته ثم أطلق عليه النار فأرداه

— خذى عنزتك وانصرفى يا امرأة فلن آخذ منك شيئا .. أما محمود فإنى سأقتله بدون أجر .. سأقتله لوجه الله .

وانقضى الليل وأقبل النهار ، ومشى الناس إلى الحقول وخرج محمود إلى عمله وأخذت ساعات النهار تمر ، حتى إذا ما مالت الشمس إلى الغروب حمل سرحان بندقيته وانطلق راضى النفس مطمئن الفؤاد ، وسار إلى الحقول وهو يحس نشوة المحرم المنطلق إلى بيت الله . إنه يشعر بالطمأنينة تشيع فى نفسه وتشرح صدره ، وبلغ مكمنه الذى سيكمن فيه وانتظر غير هيباب ولا وجل بل كان يحس غبطة العابد المنزوى فى خلوته ، وقدم محمود فصبوب إليه بندقيته ثم أطلق عليه النار فأرداه ..

وكر سرحان عائدا إلى داره مثلوج الصدر ، راضى النفس ، ناعم البال ، مستريح الضمير ، تشيع الغبطة فى محياه ، فهذه أول مرة فى حياته يقتل فيها لوجه الله .

الدرس الأول

سار محسن في الطريق الطويلة المفضية إلى الكلية في تودة واتزان ، ومحسن شاب في العشرين من عمره طويل القامة مفتول العضل أبيض الوجه أزرق العينين — وهو من أهل الدلتا — وقد كانت زرقة عينيه مدار قذع شديد ، فقد عيره زملاؤه بأنه من نسل الفرنسيين ، كبير الأنف واسع الفم تعلوه مهابة ووقار . وبلغ باب الكلية فلمح عم مرجان وقد انفرجت شفتاه فلاححت أسنانه كهلال أبيض في رقعة وجهه الحالك السواد وكان يرد على تحية الطلاب في سرور ، فمال محسن نحوه ولما أصبح في محاذاته لم يسلم عليه كما فعل بعض زملائه بل همس :

— عمتك يا عم مرجان .

فقطب عم مرجان جبينه ، واختفى الهلال الأبيض من وجهه وقال متأفقا :

— أوه محسن بيه .. عيب .

فدنا منه وهو يقول :

— قل « اشمعنى » يا عم مرجان .

— لا لا يا محسن بيه .. عيب .

فضحك محسن ضحكة عالية جلجلت في المكان فطارت في أثرها المهابة والوقار ، وهما لا يلازمانه إلا إذا كان وحده أو كان في حضرة إنسان لا يعرفه ، أما إذا قابل صديقا فقل على الوقار السلام ، فهو لا يطيق الصبر على الضحك ولا يكتفى أبدا بالابتسام . ودلف من باب الكلية فبلغ سمعه صوت جلبة وضوضاء فحسب أن الطلبة يتأهبون للإضراب ، وتساءل عما يدعوههم إليه

فلم يجد سببا ولكنه غمغم : « وهل لا بد من سبب للإضراب ؟ لكم أضربنا في السنوات الثلاث الماضية التي قضيتها في الكلية بلا سبب أو لأتفه الأسباب » . وأغذ في السير فقد واثته فرصة كبرى للتهريج ، وبلغ فناء الكلية فألقى لافتات كثيرة معلقة هنا وهناك وقد انقسم الطلبة جماعات جماعات ، فهنا جماعة تستمع إلى خطيب ، وهناك جماعة تهتف ، وثالثة تنصت إلى شاعر من الشعراء . فتذكر في التو أن أسبوع الانتخابات لاتحاد الجامعة قد بدأ فانفرجت أسارير وجهه ، فإن هذا الأسبوع أحب أيام الجامعة إلى قلبه ، ففيه يطلق لتهريجه العنان وينال من المرشحين كل منال ، وانطلق كما ينطلق إبليس يبحث عن ضحية بين المرشحين .

كان محسن يتوق في قرارة نفسه إلى أن يخوض غمار معركة الانتخابات وكان يتمنى أن يصبح عضوا في اتحاد الجامعة ، وقد همّ أكثر من مرة في السنوات السابقة بأن يرشح نفسه فهو يعلم أنه محبوب وأن الطلبة جميعا أصدقاؤه ، ولكنه على الرغم من تهريجه شديد الحساسية لا يحب أن يهاجمه أحد ، فلو نزل إلى الميدان لكان عرضة لسهام منافسيه . أضف إلى ذلك أنه يعتقد أن في ترشيحه تجريحا له ، فسيضطر إلى استجداء الأصوات استجداء ، وسيمن عليه من ينتخبونه وهو يمقت الاستجداء والمن . فأقنع نفسه بالابتعاد عن هذه التوافه — كما يسميها — التي لا تستحق إراقة ماء الوجه . كان يتمنى من كل قلبه أن يفوز بعضوية الاتحاد ولكنه كان يخشى مواجهة الصعاب التي تعترضه وتقف في طريق فوزه بها ، فتنحى كارها وحقد على المرشحين جميعا وإن لم يفتن هو إلى ذلك ، فراح يسخر منهم أجمعين .

وقف محسن عند لافتة كتب عليها « انتخبوا غراب خطيب الثورة » فغمغم : يا للمسكين ! ترى أية ثورة يعنى ولم يشهد بعد ثورة ؟ أهى ١٩ ؟

قد كان السيد غراب في « القماط ». ولكن من يدري فنحن في عصر المعجزات ؟ لعل أمه وضعت على منصة عالية يحمس الناس ، فوأوأ وبكى وانتحب فآثر في جموع الناس ، فانطلقوا مسحورين بعويله ليلاقوا الموت مطمئنين . وفكر في أن يشاغب غرابا ولكنه تذكر أنه ذرب اللسان وأن أعوانه كثيرون ، فانطلق يبحث عن فريسة أسهل ازدرادا فألقى جماعة تحت لافتة كتب عليها : « انتخبوا ابن الخطيب شاعر الوجدان » . فانفرجت الزاوية اليسرى لشفتيه في ابتسامة خبث وجال برأسه خاطر : لولا ثقل ظل ابن الخطيب الذي لا يطاق ، ولولا لسانه الخارج أبدا بعد كل كلمة ليبلل شفتيه ، ولولا عصاه الثقيلة الغليظة التي يحملها معه أينما سار لتبهه الوقار — ولا ندري لم يبحث شاعر الوجدان عن الوقار ، ولكن هكذا شاء الشاعر العظيم — لولا كل هذه المضايقات لكان شاعر الوجدان هدفًا طيبًا وصيدًا سمينا . وانطلق محسن من جماعة إلى جماعة حتى وقع بصره على لافتة جميلة مزركشة كتب عليها بخط مطرز بديع : « انتخبوا جمعة » . ولم يجد بجوار اللافتة جماعة بل لمح شابا ضامر الجسم صغير الحجم جدا حديث عهد (بالبنطلون) القصير يتطلع إلى اللافتة في فرح وسرور ، فغمغم محسن : « إنه جمعة ولا ريب ، وإنه في حاجة إلى من يرعاه ، فكيف خطر له أن يرشح نفسه ليرعى مصالح الناس ؟ ولكن لا بأس » . وفرح محسن بصيده فهتف :

— جمعة !

فالتفت الغلام وابتسم ابتسامة ساذجة والتمعت عيناه ببريق الفرحة والسرور ، وتطلع إلى القادم الكريم في اطمئنان وكانت أسارير وجهه تنطق بالشكر والامتنان وإن لم يتحرك لسانه بشيء ، فقد كان القادم أول من وفد عليه ، ولو لم تكن فكرة التهريج قد استولت على لب محسن لعطف على الغلام

ولرق له قلبه ، ولكنه كان مندفعاً بكليته إلى تحقيق فكرته فهجم على الغلام
باسطاً ذراعيه ، ثم ضمه إليه وهو يصيح :
— أهلاً جمعة ... أهلاً جمعة .

وكان أباً لاقٍ وحيداً بعد غياب طويل فضمه إلى صدره في حنان . وأحس
جمعة ارتياحاً وهو في أحضان محسن فقد وجد العملاق الذى يؤيده والذى
سيأخذ بيده إلى كرسى اتحاد الجامعة العتيد . ومال محسن وحمل جمعة على
عاتقه كما تحمل الأم وحيدها الذى تدلله ، وأمسك يديه بيديه وقد بعد ما بين
ذراعيه ، وراح يقفز به ويرقص على نغمات هتافه :

— انتخبوا جمعة ، انتخبوا جمعة ، ... انتخبوا جمعة ، جمعة .
وانطلق حتى توسط فناء الكلية وهو يقفز ويرقص جمعة المحمول على عاتقه
ويصيح :

— انتخبوا جمعة ... انتخبوا جمعة .
بلغ صوت محسن آذان الطلبة فتركوا حلقات الخطب والشعر ، وانطلقوا
خفافاً يضحكون ويلتفون بمهرجهم الأعظم ، وهتف محسن :

— انتخبوا جمعة .

فردد الطلبة جميعاً :

— جمعة جمعة .

— انتخبوا جمعة .

— جمعة ... جمعة .

فأحس الغلام نشوة عظيمة فيها هى جموع الطلبة تهتف باسمه . إنها أول
مظاهرة تقام له ، وهزه الفرح فامتلاً صدره غبطة ، وكان يحس سروراً عظيماً
كلما قفز محسن به واطمأن إليه اطمئنان الطفل إلى أمه التى تهدده وتناغيه ،

ومد بصره فألقى جموعاً تهتف باسمه : « جمعة جمعة » . فكان هتافها يدغدغ أذنيه وينسكب فيهما حلواً أخاذاً ، وفاض بشره فلم يتمالك نفسه فطفرت من عينه دمعة فرح فأراد أن يكفكفها ولكن يديه كانتا في يدي محسن . فمال برأسه ومسحها في كتفه وهو يهتر فرحاً ؛ فيا لجمعة السعيد !

* * *

انصرف الطلبة إلى دورهم وانصرف جمعة فرحاً بالصدقة التي هبطت عليه فرفعته من طالب حديث مغمور إلى أشهر طالب في الكلية في لمح البصر ، يهتف الجميع باسمه ويلتفون به التفاف الشعب بالزعيم ، انطلق مأخوذاً بروعة الاستقبال الحار الذي استقبل به ، وسار نشوان يردد في نفسه : « جمعة .. جمعة .. انتخبوا جمعة .. » وبلغ الدار ودخل حجرته مسروراً وألقى بكتبه وهو يدور في الحجرة يكاد يطير من شدة الفرح .

وأقبل الليل ودخل جمعة لينام ولكن لم تغمض له عين ، فقد كانت حواسه مرهفة يتذكر حوادث النهار في انشراح ، وتمنى أن ينقضى الليل سريعاً لينطلق إلى الكلية وليقابل محسن العزيز وليستمع إلى هتاف الطلبة له . إنه ليحن إلى سماع اسمه منطلقاً من أفواه الطلبة في السحر الهتاف !

وكان فرح محسن عظيماً فقد وقع على غلام ما كان يظن أنه سيقع على صيد أسهل منه يوماً ، فعلى الرغم من أنه تلقى دروساً كثيرة في المدارس فإنه لم يتلق بعد الدرس الأول ، إنه لين ألين من العجين وسيكيفه كيف يشاء وسيسخر منه كيفما يحلو له وسيجعله أضحوكة الكلية سنين وسنين . إنه ليعجب كيف أمضى هذا الغلام سنى التعليم الطويلة قبل أن يلتحق بالجامعة ؟ ! إنه غلام صغير وعر كبير لا يفرق بين الجد والسخرية . لقد صدق أن الطلبة يهتفون له لجدارته بعضوية اتحاد الجامعة فراح يحدثه عن الهتافات فخسورا مسروراً ! ولم

يحاول أن يسأل نفسه مرة متى اكتشفوا عبقريته النادرة وكيف علموا بأحقية
للعضوية ، ولكن ماله وهذا ؟ فهذا هو اسمه يردده الجميع .
وخرج جمعة إلى الكلية مبكرا عامر الصدر بآمال كبار ، وأخذ يبحث عن
محسن في كل مكان فلم يعثر عليه فراح ينتظره في قلق ، وثبت عينيه على مدخل
الكلية ومر الوقت ثقيلًا بطيئًا ... ولاح محسن أخيرا فأحس جمعة فرحا
لظهوره وهم أن يعدو نحوه كما يفعل الأطفال عندما يلمحون بعض من يحبون
على بعد ، ولكنه تذكر أنه مرشح لعضوية اتحاد الجامعة فقام وسار على تودة
مغالبا رغبته وقابل محسن في وسط الفناء ، وما إن وقعت عينا محسن عليه حتى
هتف بصوت كالرعد :

— جمعه ؛

وفتح ذراعيه وتلقاه في صدره ، وأشرق وجه الغلام وسار بجوار محسن
مسرورا ، وانطلقا من ناحية الإدارة فالتفت محسن إليه وقال :

— إلى أين ؟

— تعال معي لأدفع القسط الثاني .

— هيا .

وسارا ، ولما اقتربا من غرفة المحصل قفزت إلى رأس محسن فكرة فأمسك
بذراع جمعة وقال :

— انتظر .

— ماذا ؟

— لماذا تدفع القسط الآن وبقا أسبوعان على آخر ميعاد لدفعه ، أبقيه فقد

نحتاج إلى نقود .

فرد جمعة في بلاهة :

- نحتاج إلى نقود ؟ نحتاج إلى ...
- أجل .. لا بد من شراء بعض الأصوات .
- شراء بعض الأصوات ؟
- أما سمعت المثل الذى يقول : « أطعم الفم تستحى العين » ؟ .
- أجل .
- لو أقمتنا حفلة شاي فى الأمريكين مثلا ودعونا الطلبة الأقوياء ، ألا يكون لمثل هذه الدعوة أثر ؟ سيكون لها أجمل الوقع فى نفوسهم .
- وبعد ؟
- لا بد من إقامة حفلة شاي .
- فمد جمعة يده فى جيبه وأخرج النقود ودفع بها إلى محسن وهو يقول :
- خذ وافعل ما تراه صالحا .
- لا .. لا آخذ نقودا ولا أمسها ، دبر أمر نفسك بنفسك . هذا مجرد اقتراح من مخلص لك ، فإن شئت أخذت به وإن شئت تركته .
- وأقيم حفل باهر دعى إليه أصدقاء محسن المقربون ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريثا ، وانصرفوا وهم يشدون على يد الداعى الكريم يهتونه بعضوية الاتحاد ، ويغالبون بسمات لو أطلقت حريتها لارتسمت عريضة على وجوههم أو لجلجلت ضحكات ، وانتهى الحفل وقد ذاب القسط الثانى من مصاريف جمعة .

احتدمت المعركة الانتخابية فى اليوم الرابع فقام خطيب كل مرشح يذكر محاسن مرشحه ، ووقف جمعة ومحسن وأصدقاؤه يرددون هتافاتهم ، والتفت خبيث إلى محسن وهمس : « اذكروا محاسن موتاكم » . فابتسم محسن ولم يجرؤ .



احتدمت المعركة الانتخابية في اليوم الرابع
فقام خطيب كل مرشح يذكر محاسن مرشحه

(همزات الشياطين)

على الخطاب ، فماذا يقول ؟ وجذب جمعة من يده وابتعد به عن الأبصار وقال :

— أصبحت الخطب شيئا عتيقا ، قد سئم الناس الخطابة ، نريد تجديدا .
ألم تأخذ في الإعلان أنه كلما كانت طريقة الإعلان جديدة ضمنت عددا أكثر من القراء ؟ قد فكرت لك في دعاية هائلة ، دعاية ستقلب الكلية رأسا على عقب ، سنعمل دعاية لم يعملها مرشح قبلنا ولن يعملها مرشح بعدنا . لقد أمضيت أمس جميعه في إعداد كل شيء . والله ليخيل إلي أنهم سيطلقون على هذا اليوم « يوم جمعة » على الرغم من أنه يوم أربعاء .
ومال على أذنه وأسر له بما أعد فتهللت أسارير جمعة ، وقال له محسن :
— سنخلد هذا اليوم في تاريخ الكلية .. هيا .

وخرج من باب الكلية وجمعة يقفز فرحا وسرورا ، ومرت ساعة والخطباء يخطبون والشعراء يصبون جام شعرهم على الطلبة المساكين . وارتفع صوت مزمار وطبول ، واقتربت الأصوات حتى غطت على أصوات الخطباء ، وخيل للجميع أن الطبل البلدى يتجه صوب الكلية فتطلعوا نحو الباب . ولم يطل انتظارهم فقد دخل من الباب رجل معمم ينفخ في مزمار وبجواره رجلان يدقان على نقرزان وخلفهم محسن يجذب حمارا ركب عليه جمعة وقد لبس ملابس الهنود الحمر ووجهه إلى ذيل الحمار وظهره إلى رقبتة وكان على رأسه ريش طويل وراح يتلفت إلى الطلبة مسرورا . فأسرع الجميع يضحكون ، ونزل الخطباء وأسرع المرشحون ليحققوا جميعا بالموكب العجيب ، وارتفع صوت محسن عاليا :

— انتخابوا جمعة .

فردد الجميع :

— جمعة ... جمعة .

وعاد محسن يهتف :

— انتخبوا جمعة .

ولكن همسا كان قد سرى بين الطلبة فراحوا يصفقون ويرددون :

— العب يا جمعة .. العب يا جمعة .

واستمر الضجيج والعجيج ، وراح هذا يجذب ذيل الحمار وآخر يحاول أن يركب أمام جمعة ، وثالث يعبث في الريش العالى الذى يزين رأسه ، وأخيرا عاد الموكب من حيث أتى يحمل جمعة العزيز .

* * *

وجاء اليوم الفصل فوقف المرشحون عند باب لجنة الانتخابات ينظرون إلى الداخلين نظرة استجداء ، وأقبل محسن ونظر إلى جمعة وهو يدخل وكور له يده وراح يهزها ويتسم . واختفى محسن عن أعين المرشحين وتناول ورقة مكتوبا فيها أسماء المرشحين ليشطب أسماء الذين لا يرغب فيهم ، فتناول قلمه وشطب أول ما شطب اسم جمعة العزيز ، وخرج يتسم لجمعة ويؤكد له أن النجاح مضمون فالجميع ينتخبونه .

وظهرت نتيجة الانتخابات ونال جمعة صوتا واحدا ، وهو يعرف جيدا صاحب هذا الصوت ، فقد كان هو جمعة نفسه ، وأقبل محسن عقب إعلان النتيجة وقال له :

— أرايت ؟ إن هذا الصوت صوتى .

فنظر إليه جمعة نظرة مقت ، ولعلها أول نظرة مقت نظرها في حياته . وأدار ظهره له وانصرف مطأطئ البصر حزينا ، فقد شرب أول كأس وتلقى أول درس .

مشى الظلام إلى المدينة فمشى الهلع إلى القلوب ، فإن الناس باتوا يخشون الليل ويوجسون منه خيفة ويتمنون انقضاءه ، فكلما ولى ليل كتب للناس عمر جديد . فإن قاذفات الموت ومجلبات الدمار لتحلق في سماء القاهرة في سكون الليل فتهتك ستوره وتفزع اللاجئين إلى صدر انوم الحنون ، ثم تلقى الدمار إلقاء وتنثر الفناء نثرا .

ونشر الليل ألويته فساد المدينة وجوم ، وأقفرت الطرق وراح الذين تأخروا في الأوبة إلى دورهم يتحسسون الحوائط يتلمسون طريقهم مخترقين طيات الظلام التي تراكمت بعضها فوق بعض ، فقد خبت جميع المصابيح التي كانت تهديهم ، وأسدلت على النوافذ الستور ، فحجبت النور ومنعته من أن يتسرب منه بصيص يرشد السائرين إلى السبيل .

وراحت أم تقطع الطريق بين النافذة وبئر السلم صاعدة هابطة حائرة متبرمة خائفة متشوقة تكاد الدموع تطفر من مآقيها ، فإن ابنها الوحيد لم يعد وقد انقضى من الليل شطره ؛ وأخشى ما تخشاه أن ينطلق صوت النذير ثم تلقى أبالسة السماء حملها وابنها بعيد عن أحضانها لا تدري أكتبت له السلامة أم ذهب مع الذاهبين ؟ وبلغت النافذة فأطلت منها وحاولت أن تخترق ببصرها حجب الظلام ولكن ارتد إليها بصرها وهو كسير ، فما رأت إلا سوادا في سواد ، فانقبض صدرها وسالت دمة على خدها ، ثم رفعت رأسها إلى السماء تلتمس من الله ستره ، فلم تتمم بدعاء ولم تتحرك شفتها ولكن أحست حرارة قلبها تنتشر في صدرها . واستمرت على ذلك برهة ، وبلغ سمعها أزيز خفيض حسبته صوت طائرة مغيرة ففزعت وأرهفت منها الحواس وهزلت



ولكنها أرادت أن تظهر لابنها غضبها فعبست وقطبت جبينها .

إلى بئر السلم تنظر لعلها تجد ابنها صاعدا فيعيد إلى النفس الخائفة المعذبة هذوعها . ولكنه لم يعد ولم يرحم قلب أمه ، فأحست روحها تذوب وقواها تخور فجلست على الدرج وقد أسندت رأسها إلى حديد الدرايزين تنظر من خلله ، تنتظر أوبة الغائب الذى لا يحس أن قلبا به مشغول وعليه ملهوف ومر الوقت ثقيلًا بطيئًا ، وسمعت وقع أقدام صغيرة فاضطربت ، وازداد قلبها خفقانا وهبت منتصبة ، ثم تدلت من فوق الدرايزين تنظر فلمحت ابنها الصبى صاعدا فشعرت بالطمأنينة تشيع في صدرها وانبسطت أسارير وجهها وتهللت ، ولكنها أرادت أن تظهر لابنها غضبها فعبست وقطبت جبينها فبان عليها الغضب وإن كانت الراحة قد سكنت قلبها . وبلغ الابن مكان أمه فابتسم قلبها وإن ظلت على عبوسها ، وقالت فى صوت حاولت أن يوحى بالزجر والغضب :

— ما هذا الغياب يا رشاد ؟

فقال معتذرا :

— قابلت صديقا لم أقابله من سنين فأخذنا الحديث .

فدخلت الأم شقتها وهى متكلفة عدم الرضا ، ودخل رشاد حجرته وخلع ملابسه ، ثم خرج فوجد الطعام معدا فدعا أمه لتأكل معه ، فقالت له فى اقتضاب إن ميعاد عشائها قد فات ولا تستطيع أن تأكل وتنام . ثم ذهبت إلى حجرة بعيدة وجلست صامئة فى ركن بعيد .

وتناول رشاد عشاءه ، ثم انطلق إلى فراشه ودس جسمه النحيل فيه ، ولم ينقض كثير وقت حتى ارتفع غطيظه . فقامت أمه وسارت على أطراف أصابعها ودلفت من باب حجرته ونظرت إلى وجهه فى وله ، وانحنى عليه واشتاقت إلى أن تطبع على وجنته قبلة ، ولكنها أحجمت خشية أن توقظ

الحبيب ، فمدت يدها في رفق وسوت شعره وأبعدته عن عينيه ، ثم سحبت عليه الغطاء في هدوء وانسلت لتنام .

ولف السكون الكون وركن الناس إلى النوم ، وما استراحوا من آمالهم وآلامهم حتى انطلقت أصوات زمارات الإنذار تهتك السكون وتخلع القلوب . فهب النُّوم من نومهم مذعورين وانطلقوا مفزوعين كل يفر بنفسه وينجو بجلده لا يفكر في سواه . وهروا جميعا فما درى أحدهم ما ارتدى ولا ما حمل ، وأخذ الناس على الدرج يتدافعون كل يبغي الوصول إلى المخبأ الأمين ليطمئن على حياته .

وهبت أم رشاد من نومها مذهولة مذعورة ، وجرت بغريزتها إلى طفلها وأنحنت فوقه وقد نشرت ذراعها لتحميه بجسمها إذا ما خر عليهما السقف ، وانتشلت رشاد من فراشه ، فلما استوى على قدميه لفته في ثيابه وضمته إليها وخرجت تضرب به في الظلام اللجى ، فلما بلغت الدرج وابتدأت النزول فيه ، وجدت أناسا يتزاحمون ، فجعلت تدفع الهابطين وتمرق برشاد في حنفة حتى بلغت مخبأها .

وساد المكان سكون قاتل ، ثم سمع دوى انفجارات متتابعة فبان الرعب والذعر في وجوه الناس وابتدعوا يتهايمسون ، ثم ارتفع همسهم حتى صار صخباً عاليا غطى على أصوات الانفجارات المدوية ، وطلب أناس من الناس السكون فسكبنوا قليلا ثم ما لبثوا أن عادوا سيرتهم الأولى .

وأطلقت زمارات الأمان فأضيئت الأنوار ، وخرج الناس من مخابئهم مطمئنين يسرون في هدوء لا يتدافعون ولا يتزاحمون .

وانقضت ليالى في فزع وهول ، وسقط رشاد مريضا فجعلت أمه تمرضه وهي تهاب الليل وترتجف إذا ما تذكرت زمارات الإنذار . فماذا تفعل إذا ما

فجأها الصوت البغيض ورشاد لا يقوى على السير ؟ ومرت ليالى فى هدوء
فاستراح الناس وتمتعوا بلذيد النوم ، ولكن أم رشاد ظلت مسهدة لا ينطبق لها
جفن ، فقد ثقل المرض على ابنها الوحيد فأسبل جفنيه وغاب عن الوجود .
وجلست أم رشاد فى جوف الليل بجوار ابنها الذى يجود بأنفاسه تسح
الدموع ، وانطلق صوت زمارات الإنذار يعكر السكون ويهيج الشجون ،
فهبت الأم واختطفت ابنها وحملته وأسرعت به تفر من الموت الذى يتأرجح
فوق الرعوس .

وانتهت الغارة بسلام وعادت الأم ووضعت رشاد فى فراشه وهو غائب
عن الوجود ، وراحت تمرضه وتدلك له يده الباردة لعل حرارة يدها تنتقل
إليه ، ولكن ما انقضت ساعات حتى كان الطفل العزيز قد مات .
وأقبل الليل فلم تفرع أم رشاد لإقباله ولم تحفل لمقدمه ، فلم تعد تنابه أو
تخشاه . فليقبل بما شاء فقد ذهب الذى كانت تخشى عليه ، ودخلت فراشها
ونامت حزينة كسيرة الفؤاد وانطلقت زمارات الإنذار فما هبت من نومها
وما انخلع قلبها رعبا بل سالت دموعها على خدها ، ثم أطبقت عينيها لتستأنف
نومها بين الأصوات المدوية فلم تعد الغارات تفرعها ، وما عاد يهزها انطباق
السما على الأرض .

البحث عن قصته

حركة دائبة وباب يفتح ويغلق ثم يفتح ليغلق ، وأناس يدخلون وأناس يخرجون ، وعلى هذا الباب قطعة نحاسية مستطيلة حفر عليها بخط ديواني جميل : « رئيس التحرير » . ودفع فراش نوبى الباب بشدة فظهر فى الصدر مكتب طويل فوقه أوراق كثيرة مبعثرة ، وخلف المكتب شاب بدين فى مؤخر رأسه الأصلع بضع شعرات يجذبها كلما صاح ، وهو دائما صائح صائح هذا الصباح ، فلم يبق على صدور مجلة الكرياج إلا يومان ، يومان فقط ولما انته بعد جميع المحررين من تقديم موضوعاتهم . وارتفع صياح رئيس التحرير ، وراح صوته يرن فى المكان يصرخ ويتوعد ويثور وينذر ، ثم ابتداء الصوت يخفت حتى تلاشى فتنفس المحررون والسعاة الصعداء ؛ فقد انتهت مظاهرة الأسبوع وتمت مواد العدد الجديد فى أمان . ولكن لم يدم اطمئنانهم طويلا فما لبث أن رن جرس الردهة الخارجية رنينا متواصلا وارتفع صوت رئيس التحرير حتى طغى على رنين الجرس ، فانكمش المحررون فى أماكنهم وأخذوا يتلفتون بعضهم إلى بعض يتساءلون فيما بينهم : « من ؟ » . وكانت « من ؟ » هذه كافية بينهم للدلالة على كل شيء ، كانت تقوم مقام جملة طويلة معناها : « من المنكود الذى لم يقدم بعد ما طلب منه ؟ » . فأشار حسنى بأصبعه إلى صدره ونكس رأسه بحركة تمثيلية تعبر عن المذلة والمسكنة فضحك الرفقاء . ودخل الفراش النوبى يهرول وقبل أن يحرك شفتيه قال له حسنى على الفور :

— حاضر .. ذاهب إليه حالا .

فحملق فيه الفراش مذهولا كأنما أتى حسنى أمرا عجيبا خارقا ، فضحك الرفاق ، وانطلق حسنى إلى غرفة رئيس التحرير وفتح بابها برفق ودخل يقدم

رجلا ويؤخر أخرى ، وقبل أن يلقي التحية صاح رئيس التحرير فيه :
— أين القصة ؟ أين قصة هذا العدد ؟

فقال حسنى متلعثما :

— لم أنته منها بعد .

فجذب رئيس التحرير الشعرات اليتيمة المسكينة النابتة في صحراء رأسه
الجرداء جذبة قوية وصاح :

— ما هذا يا حسنى أفندى ؟ لم تنته منها ولم يبق سوى يومين اثنين ، لا ..
هذا كثير .. كثير جدا .

— سأقدمها غدا .

— دائما غدا ، لو كان هذا الغد جملا لبرك .

— غدا صباحا .

— سنرى يا سيد حسنى .

وهم حسنى بالانصراف ولكن رئيس التحرير صاح به :

— حسنى أفندى !

فثبت حسنى فى مكانه وقال :

— أفندم ؟

— لا أريدها كقصة العدد الفائت ؟

— وما لها قصة العدد الفائت ؟

— إني لا أميل إلى هذا النوع من القصص ، أو بوضع أصح إن جمهورى

لا يروقه هذا النوع .

— ولمه ؟

— لأنه لا يحوى حبكة قصصية ولا يعتمد على المواقف العنيفة التى تثير

الجمهور وتلعب بعواطفه .

— إنه نوع تحليلي هادئ .

— قلت لك إن هذا النوع لا يرضى قراءنا فهو لا يرضيني .

فظهر الضيق على وجه حسنى وأحس كبريائه يطعن أمامه فقال :

— ولكنه يرضى الفن ويرضيني .

فصاح رئيس التحرير :

— دائما تتمحكون بالفن ، مسكين هذا الفن الذى نحتذى به كلما

أخفقنا . اعلم أنه لا يهمنى ما يرضيك وما يرضى الفن ، إن كل ما أبغى هو
تقديم ما يرضى عنه جمهورنا .

— أى جمهور ؟

— جمهورنا الذى يدفع قروشه ليتسلى لا ليتعب فكره فى متابعة صورك

الغامضة وعقدك النفسية . جمهورنا الذى لا يهضم إلا الخفيف من الأفكار
والذى يقرأ فى الترام وعلى شاطئ البحر ليتسلى ويقطع الوقت ، وفى الفراش
ليجلب النوم . اكتب يا حسنى قصة مثيرة ، غرام عنيف ، خيانة وقتل ، انتقام
مروع يهز المشاعر ويجعل صدور القراء كمرجل يفور ، فضيحة تهزهم
وتسلب لبهم وتستولى على أفئدتهم فتجعلهم بفنك يتغنون ، وبمقدرتك
القصصية يتحدثون .. أسمع ؟

— أسمع للأسف الشديد . إن ما تطلب هو نوع تافه من أنواع القصص ،

بل هو أتفهها جميعا . وإني أربأ بنفسى أن أهبط إلى هذا المستوى أو أكتب فى
هذا النوع .

— يا مسكين إن هذا النوع يلاقى رواجاً وإقبالا ، فدع فنك واكتب ما

يرضى الجمهور .

— إن ما تطلب منى يتجافى وطبعى ، فكيف أكتب فضيحة وأنا أمقت

الفضائح ، أو أقتل قتيلا وأنا لا أطيق رؤية قتيل ولو في قصة . الحياة ملأى
بالصور البهيجة ، فلم لا أنقل إلى قرائك ما في الحياة من جمال ؟ لم لا أشرح
صدورهم بدل أن أقبضها ؟ لم لا أسعدهم بدل أن أشقيهم ؟
فضاق صدر رئيس التحرير فصاح فيه :

— لن أقبلها منك إلا قصة مثيرة تهز المشاعر وتستولى على الأبواب .
— سأحاول وأمرى إلى الله .
— غدا صباحا يا حسنى وإلا ...

— لا لزوم لإلا هذه ، سأقدمها غدا صباحا قصة مثيرة وعلى رأسك دم
ضحاياها .

وانصرف حسنى إلى مكتبه وأخرج ورقا وتناول قلمها ، وسرح خياله منقبا
عن قصة عنيفة مثيرة ولكن لم يفتح الله عليه بشيء ، فراح يرسم خطوطا على
الورق وجعل يراود خياله على التحليق في عالم الفضائح ، ويحاول أن يتذكر
مأساة سمع بها أو قرأ عنها لينسج على منوالها ولكن أغلق عليه فقد كان خياله
اليوم مهيب الجناح لا يستطيع التحليق ، فأخذ يحاور خياله كما تعود أن يحاوره
كلما فترت همته عن أن يفتح أمام عينيه موضوع قصة يكتبها . وكان الحوار
يدور دائما في داخل نفسه وهو مطرق صامت ، إذا رأيته حسبته نعنسان ألقى
برأسه ليستريح بينا تكون الحركة دائبة في نفسه ، والحوار يشتد ويلين ، وقد
يبلغ درجات الفورة والعنف فقال لخياله وهو يحاوره :

— أتتخلى عني اليوم ؟
— وما تريد منى أن أفعل ؟
— أن تسعفنى بمأساة دامية .
— أمقت المأسى ولا أحب ذكرها .

— أما سمعت كلام رئيس التحرير ؟

— دعنا من رئيس التحرير ؟

— كيف لا أفكر في رئيس التحرير ، فهلا تود أن تعيش ؟!

— هذا أمر يتعلق بك .

— ويتعلق بك .

— لا .. إني أعيش وأخلق في عوالم الحبيبة سواء أرضى رئيس التحرير أم

غضب .

— كيف تعيش بدوني ؟ أنت تبع لي فإن سعدت حلقت أنت في عالمك

الوردى ، وإن شقيت تحببكت في دياجير عوالم الحزن البغيضة .

— أما أنتشلتك من عالمك الكريه مرارا وجعلتك تخلق معي في أجواء من

الجمال الحبيب ؟ أما سموت بك عن البشر وجعلتك كالملائكة ترتفع لا يقف

دون ارتفاعك حائل ولا يمنعك عما تبغى مانع ؟

— لطالما حلقت معك ، ولطالما شعرت براحة وسعادة واطمئنان ، ولكن

ما كانت هذه الراحة لتدوم فما كنت ألبث أن أهوى من عالمك إلى عالمي فأجد

أنى أجد في أثر سراب . لطالما تناولت على موائدك ما لذ وطاب أثناء جوعي

ولكن طعامك الفاخر ما كان ليملأ بطني ، ولطالما ارتديت أفخر الثياب

وخطرت كما تخطر العروس ولكن ملابس عالمك ما كانت لتستر جسمي ،

ولطالما قابلت عندك من أحب ورشفت من ثغورهن الرضاب ولكن تلك القبل

في عالم الأوهام ما كانت لتطفئ شوقي ، ولطالما انتقمتم من أعدائي ونكلت

بهم في ساحتك حتى جاعوا أذلة صاغرين ولكن هذا الانتقام ما شفى غليل ولا

جعل أعدائي يأتون ساجدين ، ولكم جعلتني أظلم في عالمك رئيس التحرير ولكم

نال منى هنا رئيس التحرير ! بالله هيا لقد خضنا في حديث لا طائل تحته ، ولن

يرضى رئيس التحرير .

— وما أفعل ؟

— أسعفنى ولك علىّ ألا أكلفك مشقة طوال الأسبوع .

— سأحاول أن أبحث عن فاجعة ، ولكن هذه المرة فقط .

— أعدك بهذا .

— اتفقنا .

انطلق خيال حسنى ، ولبت حسنى مدة كالثوب الملقى لا يبدى حراكا ولا تتور في نفسه الأحاسيس ، ثم ظهر في وجهه حركة حياة وانتعاش فقد عاد إليه خياله يصيح :

— وجدتها .. وجدتها .

— ما هى ؟ ما هى ؟

— الفضيحة التى تبحث عنها .

— أعلم أنها الفضيحة التى أبحث عنها ، ما هى ؟

— زوج سعيد يعيش مع زوجه عيشة هائلة وهو يثق فيها كل الثقة ، وفي يوم من الأيام يعثر مصادفة على رسائل مرسلة إليها من عشيقها يثها لواعج شوقه ويذكر فيها ما يشير إلى الخطيئة ، فيثور الزوج ولكنه يكتم ثورته ويأخذ في مراقبة داره ، حتى إذا ما اختلى العاشقان الآثمان فاجأهما وأطلق عليهما الرصاص .

— أهذه هى الفضيحة التى هزتك طربا فجئت تصيح : « وجدتها .. وجدتها » كأنك أرشميدس العصر والأوان . ما حسبتك سقيما إلى هذا الحد قط . لطالما كتب الكتاب فى هذا الموضوع حتى صار مهلهلا لا يستحق الكتابة فيه .

(همزات الشياطين)

— ليست العبرة بالموضوع فكم من مرة سمعتك تقول إن العبرة بالمعالجة ،
تحريك الشخصوص ، إبراز الشخصيات وتميزها .
— تحريك الشخصوص أو سفك دمائها ؟!
— لا تسخر بي بربك . ألم يطلب رئيس التحرير سفك الدماء إرضاء
لجمهوره المتعطش للدماء ؟ فليس الذنب ذنبى .
— وكيف يكتب ختام هذه المأساة ؟ أ يطلق الرجل الرصاص وهو صامت
هادئ ، أم يلقي على الآئمين محاضرة طويلة يستصرخ فيها السماء ويستنزل
اللعنات ويرغى ويزيد منددا بالسفلة الأوغاد ؟
— لا بد من الخطبة الرنانة التى يفوق دويها دوى الرصاص الذى سينطلق
عما قريب .

— ما أقول فى هذه الخطبة وأنا لا أجيد صياغة العبر ولا انتقاء الكلمات
الرنانة التى تجعل الدهماء يمصصون شفاههم إعجابا كلما قرأوها ؟
— أوه ! أثقلت علىّ اليوم . ألا تعرف كيف تقول : « يا للكرامة المهدورة
ويا للشرف المسلوب ! طعنتانى فى الضميم ويا ليت طعنتكما أصابت فى مقتل
فأردتنى صريعا . ولكنها تركت جرحا ينزف قيحا وصديدا . إن أنفى لن يشم
بعد اليوم إلا رائحة الخيانة ، وإن عينيّ لن تريا بعد اليوم إلا صور الخيانة ، وإن
أذنى سيرن فيهما دواما رنين ضحكاتكما الآثمة ، ولن يمحو صوت الرصاص
الذى سينطلق من مسدسى بعد حين صدى ضحكاتكما . يا لى من بائس
مسكين ! يا رب السماء اشهد ؛ إني أغسل عارى بدمائهما ... ماذا
أتضحك ؟

— وهل يسعنى إلا أن أضحك ، من أين لك هذا وما وقفنا مثل هذا الموقف
أبدا ؟

— إني أتمثل .

— وبمن تتمثل .

— ما أكثر من تتمثل بهم في عصر من كتاب التهويلات ، ألا تذكر ذلك الممثل المؤلف المخرج وما يعرض من فواجع دامية مفتعلة حتى نجح في أن يفسد أذواق الجمهور ؟ تمثل به فهو يكتب قصصه بدماء أبطاله . استعز قلمه البتار الذى يخلف وراءه من القتل والجرحى أكثر مما يخلف وراءه جيش محارب مزود بالمدافع والدبابات .

— لا والله لن أكتب على طريقته ولو طردنى رئيس التحرير . أتطلب منى أن أصبح كما يصيح مستعملا تلك الكلمات الجوفاء الرنانة التى يقشعر منها بدنى ويتصعب بسببها عرق الخجل منى ؟ والله إني لأشفق على ذلك المؤلف المسكين كلما فكرت فى أنه قد يحدث أن يعاد عرض إحدى قصصه بعد حقبة طويلة كطور من أطوار التمثيل . إن ضحكات السخرية والأزدراء التى ستجلىل فى جنبات صالة العرض لترن فى أذنى الآن ، وإني لأذكر كلما تذكرته ذلك الشريط السينمائى القصير الذى عرض علينا يوما عارضا تطور التمثيل فى أوروبا ، فرأينا كيف كان الممثلون يتكلفون فى حركاتهم ويبالغون فى إشاراتهم ، فإذا قابل الحبيب الحبيبة قدم إليها الورود بطريقة تضحك الثكلى ، ثم ركع وقبل طرف رداؤها ، ثم شكوا وبكى ونوح وهوراكع أمامها ، وأخذت يده اليمنى تلمس قلبه ثم تطير فى الهواء ثم تعود لتلمس قلبه . وعلى الرغم من أن القطعة التى كانت تمثل مأساة دامية فإن ضحكات الهزء والسخرية كانت تهز جنبات صالة العرض هذا ، فلن يكون مصير صاحبنا إلا هذا المصير .

— هذا هو النوع الذى يطلبه رئيس التحرير ويطلبه الجمهور .

— لا يهمنى رئيس التحرير ولا الجمهور .

— حسنا تفعل ، هذا ما قلته لك أولا فودعا .

— لا .. لا انتظر ، بل يهمنى رئيس التحرير ويهمنى الجمهور ، فإني أريد أن أعيش ولكن لا أريد أن أكتب مثل هذه المآسى ، هلا أسعفتنى بموضوع آخر ؟

— إني متعب الآن فلن أقدر على فعل شيء ، فكأنما أحمال الدنيا قد وضعت فوقى وكأنما أربطة الدنيا قد شدت وثاقي .

— سادعك الآن تستريح . يظهر أنك متأثر بصاحبنا فتميل إلى المبالغة في التعبير ، فأرجوك ألا تتمثل به بعد الآن أبدا .

وطوى حسنى الورقة المبسوطة أمامه ، وفتح درج المكتب وأخرج رزمة أوراق موضوعة بين دفتى جريدة قديمة وضعها تحت إبطه ونهض ، ثم انطلق تاركا دار المجلة . وما إن دلف من باب العمارة حتى لفحته نسمة لطيفة أنعشته . وسار في الطريق قليلا وكان قد عزم على ألا يفكر في أمر القصة إلى أن تهدأ أعصابه ويستريح خياله المكدود ، ولكنه ألقى نفسه يفكر فيها برغمه فراح يغمغم : « لو لم يطلب منى رئيس التحرير قصة مروعة لكان الأمر سهلا ، فما أيسر كتابة قصة غرام ، فما كان على إلا أن أبعث ببطل قصتى إلى مرقص من المراقص فيتعرف هناك بفتاة هيفاء ذهبية الشعر حلوة اللفات مرحة الأعطاف ، وما كان على إلا أن أقتفى آثار القصاص المحدثين فأسمعهما السيمفونية الثامنة لبتهوفن والدانوب الأزرق ، وأجعلهما يرقصان على نغمات الـ Blue Sky ، ثم يخرجان إلى الشرفة فيتناجيان في ضوء القمر مناجاة لا تصدر إلا عن شاعرين ملهمين لا عاشقين عاديين . وما كان على إلا أن أجعلهما يتواعدان على اللقاء في معرض من معارض الفن ليتحدثا عن الرسم والنحت ومشاهير الرسامين والمثاليين ، فأستعلى بذلك على القارئ كما يفعل

قصاصنا، ولأدخل في روعه أنى ألم بكل فن، ألم أتحدث عن الموسيقى بالأمس وأتحدث عن الرسم والرسامين اليوم؟ وللزيادة في الاستعلاء على القارئ ولإيهامه أنى أكثر منه ثقافة واطلاعا أجعل بطلى قصتى يكتشفان أنهما يهويان المطالعة ويفضلان علم النفس خاصة، فأجعلهما يتحدثان عن فرويد وأدler ويتذاكران ما قرآه لشوبنهاور، فيتحدثان عن الشعور والعقل الواعى والعقل الباطن ودهاليز القلب وممراته السرية!! أما ختام هذا الغرام العلمى فليكن ختاماً علمياً، يلاحظ بطلنا فى عيني حبيته نظرات زائغة، نظرات غير طبيعية، فإن كانت مثل هذه النظرات لا توحى بشيء إلى الرجل العادى من أمثالنا فإنها توحى بأشياء إلى بطلنا العالم النفسانى، فيأخذ في تحليل النظرات، ويتبع تحليل النظرات بتحليل الأفعال، فكل فعلة تصدر عن الإنسان لا بد أن يكون لها دافع داخلى. ويتدرج فى التحليل حتى يصل إلى الخيانة، إنها تخونه، فيهجرها دون دليل على الخيانة إلا دليل علم النفس العزيز! » .

ومر حسنى بيده على ذقنه فألفاه خشنا نابت الشعر، ففكر فى أن يدخل عند حلاق ليتزين، فكم من قصة خطرت له وهو تحت يد الحلاق الذى يعبث برأسه ويحركه كما يحلو له. واحتل خاطر الحلاقة فكره فراح يتفرس فى المحال الممدودة على جانبى الطريق. واستمر فى السير حتى وقع نظره على لافتة زجاجية كتب عليها بخط ذهبى جميل: « ادخلوها بسلام آمين » . فتطلع إلى الدكان فألفى شاباً مرتدياً معطفاً أبيض يسر الناظرين وفى شعره مشط من العاج طويل، فدلف حسنى نحوه وهو يتمتم: « توكلنا على الله فإلى جنة النعيم » . ودخل المحل فجذب الشاب المقعد الكبير المواجه للمرأة العالية، فجلس حسنى وابتدأ الحلاق فى إخراج أدواته، وراح حسنى يجول بعينه فى المكان فألفى لافتة فى إطار جميل كتب عليها: « إذا كان السكوت من فضة

فالكلام من ذهب . فالتفت حسنى إلى الخلاق وقال : « ما هذا الحال المقلوب ؟ » وكان الخلاق قد ابتدأ فى عمله فسأل : « أى حال ؟ » فأشار حسنى إلى اللافتة فقال الخلاق دون أن يلتفت إلى حيث كانت أصبع حسنى تشير : « هذا هو الصواب » . فقال حسنى : « الصواب هو : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » ، فقال الخلاق : « هذا عين الخطأ ، من قال إن السكوت يفضل الكلام ؟ » . فقال حسنى : « قال ذلك الحكماء » . فلم يعجب هذا الرد الخلاق فقال : « بل قال ذلك الذين لا يعرفون كيف يديرون الكلام ، الذين يفضلون أن يلوذوا بالصمت خشية أن يفصحوا عن جهلهم إذا ما تحدثوا . من ينكر فضل الكلمة يا أستاذ ، فكم من كلمة أنقذت رقابا من حبل المشنقة » . فقال له حسنى : « وكم من كلمة وضعت رقابا فى حبل المشنقة » . فقال الخلاق : « الذنب ليس ذنب الكلمة بل ذنب قائلها » . فقال حسنى : « والفضل فى إنقاذ رقاب من حبل المشنقة ليس فضل الكلمة بل فضل قائلها » . فقال الخلاق : « اتفقنا يا أستاذ فالفضل فضل القائل ، فينبغى أن نعد الناس لينطقوا بالكلمة الطيبة لا أن نطلب منهم أن يكونوا بكما لا ينطقون . تصور يا أستاذ عالما طبق هذه الحكمة الخاطئة فلاذ جميع أفرادهم بالسكوت ، أفلا يكون هذا العالم عالم جماد ولا أقول عالم حيوان ؟ فالحيوان يحاول أن يتكلم بما يصدر من أصوات ، السكوت نكبة يا أستاذ . كيف نطالب الناس بالسكوت وهو دليل الموت ؟ كيف نحضهم على أن يكونوا والحجر سواء ؟ إذا كنا نخشى أن ينزلجوا فى زلات اللسان فعلينا أن نعلمهم فن الكلام . الكلام فن يا أستاذ بل فن لذيد . فكم من أناس ارتفعوا حتى أصبحوا قادة وزعماء لأنهم يعرفون كيف يتكلمون . أفكان من المنتظر أن يصيروا قادة لو أنهم اتبعوا حكمة السكوت ؟ وكم من نواب برزوا حتى صاروا أعلاما

بفضل إمامهم بفن الكلام . الكلام فن وفن جميل » . فقال حسنى : « لا شك أنك فنان لأنك تجيد الكلام » . فقال الحلاق : « بل أنا فنان لأننى أجيد اللعب على الكمان » . فقال حسنى : « أتلاعب على الكمان ؟ » . وكان الحلاق قد حلق نصف ذقنه ولا زال الصابون على النصف الآخر ، فما إن سمع الجملة الأخيرة حتى ترك الموسيقى وجفف يديه فى منشفة قريية واتجه إلى مكان معلق فى الحائط وتناوله وقال : « سأسمعك الآن » . وقبل أن ينبس حسنى بكلمة ارتفعت الأنغام وراحت أصابع الحلاق تتحرك على الأوتار ورأسه يرتفع وينخفض وظهر على وجهه الرضا والانسجام .

وأطرق حسنى يسمع ، وانتهى الدور فسأله الحلاق : « ما رأيك الآن ؟ » فقال حسنى : « لولا أنى مشغول اليوم لطلبت منك أن تشنف أذنى بأدوار . إنك أستاذ . فقال الحلاق بصوت حاول أن يوحى بالتواضع : « العفو يا أستاذ » . وأراد أن يستدرج حسنى لمدحه والإشادة بفنه فقال : « إننا مبتدئون ، والطريق أمامنا طويل » . فقال حسنى : « إنك فنان موهوب » . فأرضى ذلك غروره فراح يعمل منشراح الصدر . وارتفع صوت بائع السمك ينادى : « بحرى .. بحرى » ، فوقفت الموسيقى فى يد الحلاق والتفت خلفه ، فقال له حسنى : « أتفكر فى أن تنادى على بائع السمك ثم تتركنى وتقلب فى السمك ثم تعود لتمسح يدك فى ذقنى ؟ بالله دع هذا الخاطر » . فضحك الحلاق ، وانتهت الحلقة وقام حسنى وانصرف . وفى الطريق غمغم : لو لم يطلب منى رئيس التحرير كتابة مأساة لكتبت قصة هذا الحلاق الفيلسوف »

ورأى حسنى أن ينطلق إلى الجزيرة ، فهناك فى جنة القاهرة كما تعود أن يدعوها تعرف خياله بأغلب أبطال قصصه ، فقد ساعده هدوء المكان وجمال

الطبيعة على أن ينطلق خياله حرا يسبح في عوالمه دون أن يكدر صفوه مكبر
أو يقطع عليه سبحة اللذيد قاطع . فكم قابل خياله هناك أبطالا يحبهم ، وكم عثر
على صور بهيجة نقلها إلى قرائه ، ولكم ساعدته رؤية أسراب العشاق المتناغين
المتناجين المتهامسين على التحليق في عوالم حبيبة . فاتجه حسنى إلى الجزيرة
ناسيا أن أبطاله الذين يبحث عنهم اليوم ليسوا ممن تعود أن يتعرف بهم هناك ،
فإنه يجد في أثر رجل قهره الحب وأعمته الخيانة فثار لكرامته المهذورة وهب
لينتقم لنفسه ، بينما أن كل من يطوفون بالجزيرة ممن يهمون بوضع أرجلهم على
أول درجة من درجات الحب ، فما قاسوا هجرا ولا صدا وما دارت أفكار
الانتقام برعوسهم بعد ، فأحبهم بجوارهم يعطفون عليهم ويضمونهم إلى
صدورهم فيطفئون لهيها ، ويبادلونهم القبلات فيرفعونهم إلى السماوات
فيحسبون أن الحياة سرور كلها ، بهجة كلها ، فتشع وجوههم رضا وأملا .
فكيف يوحى أمثال هؤلاء السعداء إليه بفاجعة مروعة أو انتقام عنيف ؟ نسى
حسنى كل هذا أو تناساه بمعنى أصح ، فما كان مخلصا في تفكيره في كتابة
مأساة ، فلو أنه كان جادا لقع في داره وأعمل فكره ، وما كان من العسير عليه
أن يلقى مأساة تستدر عطف الجمهور ، ولكنه كان في قرارة نفسه يسخر من
هذا النوع من الأدب ولا يتصور أنه يطبق الكتابة فيه ، دون أن يضيق صدره
به أو ينفجر ضاحكا في أعنف المواقف ويمزق ما كتب .

بلغ حسنى الجزيرة وقد همت الشمس بالمغيب فألقت على سطح الماء
أسيافا من الذهب الإبريز ، ونظر إلى قرص الشمس المتوهج البادى بين سعف
النخيل وإلى ظلال الوهج المتداخلة في بياض السحاب الناصع فبدت السماء
كلوحة فنية ابتدعتها يد فنان قادر ، فأخذ يتطلع إلى اللوحة التي كانت تتبدل
وتتشكل بين لحظة وأخرى فارتسمت في مخيلته مئات اللوحات الرائعات

التي استولت على لبه . وغاب عن الوجود لحظة وغمغم : « يا ليتنى كنت مصورا إذن لو وضعت لهذا المنظر الساحر مئات اللوحات الخالدات » . وانطلق حسنى إلى الحديقة وجعل يجوس خلالها ، وراح يدور بعينه في المكان فألقى كل شيء كعهده به . ولمح مقعدا خاليا فتذكر أنه قد جلس عليه مرة بعد خروجه من دار سينما كانت تعرض قصة بطلتها الراقصة الحسناء بتى جرابيل ، وتذكر كيف تخيل بتى بجواره يومذاك وكيف أدار الحديث بينه وبينها ، فتفتحت أمام خياله معالم قصة فأسرع بالعودة إلى الدار وسجلها ودفع بها في اليوم التالى إلى رئيس التحرير فأعجب بها ؛ فقد كانت قصة فوارة من وحي عيون ساخنة وشفاه ما خلقت إلا للقبل . فيمم حسنى شطر المقعد وجلس عليه وأطلق لفكره العنان لعل هدوء المكان يوحى إليه بما يصبو إليه ، وحلق خياله قليلا وقبل أن يغيب فى أجوائه وقعت عيناه على غادة شابة جالسة وحدها على مقعد قبالة ، فهبط خياله من سمائه وتأهب لما سيدور بينه وبين حسنى من حوار حول الحسناء ذات الشعر الفاحم ، والعيون السوداء والبشرة السمراء ، وكانت ساهمة مفكرة فسأل حسنى خياله :

— فيم يفكر الرأس الجميل ؟ وما الذى يقلقه ويزعجه ؟ وما الذى يدعوه للنفور والوحدة ؟ أهجره الحبيب ؟ ولم يهجره ؟ أم واعدته ؟ ولم يف بوعده ؟ أم يخفى هذا الصدر الناهد سرا يرضيه ؟
— وهبه يخفى سرا فمالك وما يخفيه ؟

— قد يكون فى معرفته وكتابته ما يرضى رئيس التحرير ، ليتنى أعلم ما تخفى الصدور .

— وهبك عرفت سرها وكان مما يرضى رئيس التحرير وفضول قرائك ،
ومما يجرح إفشاؤه هذا الجمال الحالم ويفزعه ، أكنت تفشيه ؟

— أجل ولا ريب .

— اتق الله .

— وهل حافظنا على أسرارنا حتى يطلب منا ألا نفشى أسرار الناس ؟ إننا مصابون بمرض الإفضاء ، فما نحس شيئا إلا سجلناه ، وما يهجس فى نفوسنا هاجس إلا دوناه ، فإذا فرحنا أشركنا الناس فى أفراحنا وإذا حزنا حملناهم بعض همومنا .

— الويل لمن يأتمنكم على سره . هيا وانتقل بجوارها وحاول أن تجرها إلى الحديث لعلها تأنس إليك ، فيجر الحديث بعضه بعضا .
وقام حسنى وسار فى الممر الذى يمر بالمقعد الجالسة عليه الحسناء الحاملة ، ولما حاذاها رماها بنظرة خاطفة فراعته جمالها . وانطلق فى طريقه ثم عاد حتى إذا ما أصبح فى موازاة المقعد انحرف إليه وجلس على طرفه ، ثم أخذ يزحف عليه شيئا فشيئا حتى أصبح بجوارها فالتفت إليها وهمس :
— ما أجمل الجو اليوم .

فرفعت رأسها الجميل والتفت مذعورة ، فقال :

— وما أجمل ما تقع عليه عيناي الساعة .
فقطبت جبينها ورمته بنظرة يتطاير منها الغضب ، وغمغمت وهى تترك المقعد شاردة كغزال نافر .
— وما أسخفك !

فثبت حسنى فى مكانه وهتف به خياله :

— ألا تتبعها ؟

— لا .

— ولم ؟ مالك تسمرت فى مقعدك ، أأصابك سهم لحاظها ؟

— لم يصبنى فأنى ألبس درعا ضد سهام العيون ، كما أنى لا أو من بالحب من أول نظرة .

— وهل تؤمن بالحب من ثانى نظرة ، لو كنت تؤمن به لما انتقلت من حب إلى حب .

— ما أشقانا ، فحبنا حقل تجارب يرضينا ما دام يمدنا بما يرضى الناس ، فإذا خبا وانطفأت قوة وحيه وانتهت قصته ، بحثنا عن حب جديد يمدنا بوحى جديد . إننا كفراشة تهوى التنقل من زهرة إلى زهرة ترشف من كل واحدة رشفة ، همها جمع الشهد وهمنا جمع الانفعالات والأحاسيس فنختزنها لنجترها إذا ما جلسنا للكتابة ولتصوير ما يعتمل في صدور شخوص قصصنا ، فإننا في واقع الأمر نسكب على القرطاس روحنا .

— هيا قد غابت الشمس وانقضى النهار ولما نكتب من القصة شيئا . ونهض حسنى متاثقلا ، وسار مفكرا تاركا الجزيرة خلفه ميمما صوب قلب القاهرة . وأخيرا بلغ تقاطع شارعى عماد الدين وقواد الأول ، فألقى الناس يموجون بعضهم فى بعض يتدافعون بالمناكب كأنما البيوت قد أقفرت من سكانها وكأنما السكان جميعا قد خرجوا لمشاهدة مولد من الموالد ، فاستند إلى عمود من أعمدة النور الضخمة وأخذ يرقب أمواج الناس الوافدة عليه ويتفرس فى الوجوه ، وكان أغلب المارين اثنين اثنين فغمغم :

— ها هى ذى آلاف القصص المتحركة ، وإن لكل زوج قصة فهلا أوحى إلى مأساة من المآسى العديدة المكفنة فى رعوس هؤلاء البشر .

وما إن قفز إلى رأسه هذا الخاطر حتى راح يتطلع إلى كل اثنين يمران به تطلع من يود أن يتغلغل فى أعماق نفسيهما ليعود غائما بما يخفيان . ولمح شابا وشابة ينظر كل منهما إلى الآخر نظرات وله وحب ، ويلف كل منهما خصر صاحبه

بذراعه ، ويتناجيان كأنما الشارع قد أقفر من الناس إلا منهما فغمغم : « حب جديد » . ثم رأى رجلا يسير وبجواره سيدة في مقتبل العمر جميلة جذابة يود المرء أن يحظى بكلمة من فمها الممتلئ القاتن الذي يغرى بالقبل ، ولكن الرجل كان يسير صامتا وكأنما أنسته أفكاره ذلك الجمال السارى بجوارى ، فغمغم حسنى : « زوج وزوجه ، فهلا عرف الرجل لزوجة نفاستها ؟ » . ومر عليه جندي من جنود الحليفة يلف ذراعه حول خصر فتاة سمراء كل ما فيها يومئ بأنها كانت خادما من عهد قريب ، فما كانت تحيد السير بالحذاء ذى الكعب العالى ، فغمغم : « حب ولد الساعة ويموت بعد ساعة » . واستمر يرقب الغادين والغاديات ، وأحس الجوع يعضه بأنياه فترك مكانه وسار إلى محل (ساندوتش) قريب ، وأخذ يتناول ما طلب وهو ينظر فى المرايا المثبتة على طول الحائط ، وروعة منظره وهو يقضم (الساندوتش) فجعل يحملق فى المرأة ، ثم تذكر أن فى الحبل خلقا كثيرا وأن أحدهم قد يلاحظ حركاته الشاذة فى المرأة فيحسبه مجنونا ، وما فكر فى هذا الخاطر حتى ابتسم ، ثم فكر فى أن أحدهم قد يراه يتسم لنفسه فى المرأة فلا يشك فى جنونه فضحك ، ورأى الأنظار تلتفت إليه فأحس بالحجل يعلوه ، ثم أسبل عينيه برهة سأل نفسه فيها ما دهاه ؟ هل أتعبته كثرة التفكير ؟ وفتح عينيه فرأى فى المرأة فتاة رائعة الجمال فاستدار بسرعة فرأى أنوثته كاملة ، فقفز إلى رأسه خاطر : « هذا آخر وحى يهبط عليك الليلة ، فإن فر من بين يديك فلن تكتب الليلة شيئا » . وتركت الحسناء المكان فخرج فى أثرها وأغذ فى السير ليلحق بها وقد عقد العزم على مغازلتها فلن يحول بينه وبينها حائل ، واقترب منها وهم بمحادثتها ولكنها مدت يدها وفتحت باب سيارة صغيرة أنيقة ، ثم دخلت فلم يشعر إلا ويده تمتد إلى مقبض الباب وتديره ، وباب السيارة يفتح ، وقد ابتدأت السيارة فى السير ،



وقام حسنى وسار فى الممر الذى يمر
بالمقعد الجالسة عليه الحسناء الحاملة

فقفز في داخلها ولم يدر كيف قفز فما فكر في هذا وكأنما قوة خفية كانت تدفعه وكأنما عقله قد كف عن التفكير فكان يتحرك بلا عقل . ولم يثب إلى رشده إلا عقب صرخة الفزع التي انبعثت من الفتاة ، فحاول أن يستجمع شتات فكره ولكن مرت برهة لم يدر ما يفعل وما يقول . والتفت الرجل الجالس عند عجلة القيادة فرأى رجلا غريبا في السيارة فهم بالوقوف ولكنه كان في وسط الطريق ، فإذا وقف تعطلت حركة المرور ، فانطلق وقد احتل صدره غيظ قاتل ، وفي هذه الأثناء استعاد حسنى رباطة جأشه فالتفت إلى الفتاة وقال :

— آسف لإزعاجك يا هانم ، ولكن ما باليد حيلة ، من يرى هذا الجمال ولا يسبى ؟.

— أفندى سافل .

— أنا عبدك .

— وغد .

— استمرى ، ما أعذب صوتك في أذنى .

وفكر الرجل الجالس عند عجلة القيادة في الوقوف وتحطيم وجه ذلك النذل ولكن التمعت في مخيلته فكرة فانطلق بالسيارة ، ولم يكن المكان الذى يقصده بعيدا فما لبث أن وقف أمام نقطة بوليس ، وفتح الباب بسرعة وقفز من السيارة كليث هائج ، ومد يده وفتح الباب الثانى وأمسك بتلابيب حسنى وجذبه جذبة قوية أطارت صوابه ، وأخذ يدفعه أمامه حتى بلغا مكان ضابط المخفر ، فرأى حسنى أن يتصنع السكر فأخذ يتمايل ويهذى ويسب ، وراح الزوج يقص قصته ، وانتهى كل شيء وأغلق باب السجن خلف حسنى ، وما إن لبث قليلا حتى قفزت فكرة قصة رائعة إلى خياله ، ولكن أين يكتبها ومن ذا الذى يبلغها إلى رئيس التحرير ؟

مَلْعَجْ بَعْلَع

نزل توفيق الإسكندرية وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فجعل ينقب عن مكان يأوى إليه حتى الصباح ثم يخرج للبحث عن مسكن له ، فقد نقل ليعمل هناك بأحد فروع وزارته وقد يطول النقل فيستغرق سنين . وعثر توفيق مصادفة على نزل تديره امرأة رومية عجوز فحل به وفي مرجوه أن يقضى فيه سواد ليله ثم يرحل إلى مكان آخر ، فما كان توفيق ليطبق البقاء في مثل ذلك المكان البغيض الذى تعافه النفس ويقبض ، وما كان ليطبق ثرثرة المرأة العجوز التى راحت تبدى وتعيد وهى تقوده إلى حجراته فى رطانة أجنبية ناطقة الحاء خاء ومضيغة واوا فى نهاية الأفعال فى صوت ممل قبيح ، ففهم منها كلمات وفاته عشرات ، وما كان يهमे أن يفهم بقدر ما كان يهमे أن يتخلص منها سريعا . ودخل حجراته وخرجت المرأة العجوز وأغلقت عليه الباب فأحس بعض الراحة . وألقى عنه ملابسه وتمدد على السرير ليسترخ ، وسبح فى عالم الخيال قليلا ، وقطع عليه سبحة ارتفاع صوت قبيح بالغناء فظهر عليه الامتناع . واستمر الصوت يؤذيه فتقلب فى رقدته وحاول أن يحول انتباهه وجهة أخرى ولكن الصوت كان يرن فى حجراته . فضاق صدره وفكر فى أن يخرج ليرجو المغنى أن يكف ، ولكنه كظم غيظه وتكلف الصبر فما هى إلا ليلة وبعدها الرحيل فليقضها كيفما اتفق . وخفت الصوت ثم تلاشى وسيطر السكون فهدأت أعصابه وصفت نفسه ، واستأنف تفكيره فى حياته الجديدة : إنه كان بالأمس فى القاهرة بين أهله ورفاقه ، وهو اليوم فى الإسكندرية وحيد لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد كأنما ولد من جديد . وخطر على باله غده وما ينتظره فيه فشعر برهبة : رهبة الخوف من المجهول . إنه ليقدم على أناس لا يدرى ما مصيره وإياهم ، أيرضى عنهم ويرضوا عنه أم يشقى بهم

ويشقون به؟ وقطع عليه تفكيره انبعاث أصوات في الردهة وجلبة مقاعد تتحرك ، وسمع نقرأ خفيفا على بابه فاعتدل في سريره وقال :
— ادخل .

ففتح الباب في رفق وأطلت العجوز برأسها الناصع البياض ووجهها المتغضن ، وسألت توفيق أن يتفضل للعشاء فاعتذر على الرغم من جوعه ، فقد كان ينجل أن يأكل مع أناس أغراب .

وأطفئت الأنوار ونام توفيق وكان نومه خطفا ، فما يكاد يغمض عينيه ويستسلم للرقاد حتى يستيقظ شأن من يغير مكان نومه لأول مرة . وسمع توفيق في سكون الليل صرير باب خفيض لا ينبعث الا عن باب يفتح أو يغلق بحذر ، فلم يسترع ذلك انتباهه ولم يوح إليه بشيء ، وطفق يحاول أن يجلب النوم ليها بلذيد الرقاد .

وأدبر الليل وأقبل النهار فقام توفيق يعد أمتعته وقد عزم على الرحيل . فلما أعد كل شيء خرج لبعض حاجته فوقع بصره في المطبخ على فتاة ليست باهرة الحسن ولا رائعة الجمال ، ولكن كانت تتحلل بجمال الفتوة والشباب ، فوقف يرقبها فألفى قوامها معتدلا والحياة تترقرق في وجهها ، وكانت كل لفظة منها أو حركة من جسمها توحى بحيوية دفاقة . ووقع بصرها عليه وهي تتناول وعاء من فوق الرف فأشرق وجهها وابتسمت ، فابتسم لها وأومأ لها برأسه محييا فأومأت له برأسها وانصرفت إلى عملها .

وعاد توفيق إلى غرفته واتجه من فوره إلى الجرس المتدلى بالقرب من سريره وضغطه ، ففتح الباب ودخلت الفتاة وانتظرت أوامر توفيق ، فرفع بصره إليها وقال :

— أريد فطورا .

— هنا ؟ .

(همزات الشياطين)

— نعم .

فخرجت الفتاة وما لبثت أن عادت تحمل صينية عليها طبقان في أحدهما جبن وفي الآخر بيضتان ، وكوب لبن ورغيف . ووضعت الصينية أمامه واستدارت لتخرج ، فجعل توفيق ينظر إليها حتى خرجت وأغلقت الباب . وتناول فطوره وذهب إلى ملابسه ليرتديها ليخرج إلى عمله ، وتناول قميصه وقبل أن يلبسه خطر له أن يمكث اليوم وأن يقدم نفسه إلى المصلحة غدا ، فأعجبته الفكرة فأعاد قميصه إلى المشجب وجلس . وراح الوقت يمر ، فخلا النزل من الناس إلا منه ومنها ومن العجوز ، وارتفع الصوت القبيح بالغناء فتضايق توفيق ، وفتح باب حجراته في استياء وخرج لينظر ذلك الذى يعكر عليه الهدوء ، فألقى الفتاة وهى تغنى وهى تقوم بتنسيق الغرف ، والتفت عيناه بعينها فابتسم وابتسمت ، وعاد إلى حجراته وقد فرحنه وراح يستمع إلى الأغنية ولم يتبرم ولم يضيق صدرا . وسمع نقرا على الباب ، فاعتدل في جلسته وقال :

— ادخل .

فدخلت الفتاة رسألته الإذن في إعادة تنسيق غرفته ، فأذن لها ولم يغادر المكان ، فجعلت تقوم بعملها وهو يتبعها بنظره ، واتجهت إلى السرير وتناولت الملاء المنشورة فوقه وراحت تستبدلها بأخرى نظيفة ، فكانت كلما نشرتها في ناحية انطوت في الناحية البعيدة ، فقام توفيق وأمسك بطرف الملاء البعيد وأخذ يعاونها في وضعها على السرير ، وجعل يسوى الملاء ويقرب من الفتاة حتى التصق كتفه بكتفها ، وتلاقت العيون أكثر من مرة ، واصطدم الجسم بالجسم مرات ، وخطر له أن يضع يده فوق يدها فحرك يده ورفعها ، وقبل أن يضعها ارتفع صوت العجوز تنادى :

— كاترينا .. كاترينا .

فتركت الفتاة الغرفة وأسرعت تلبى نداء جدتها ، واتجه توفيق صوب أمتعته التى حزمها وفكها فقد قرأه على البقاء .

وراح توفيق يحوم حول كاترينا ، فخرج إلى الردهة وجلس يتظاهر بالقراءة فى مجلة ، وكان يشاغلها إذا ما مرت أمامه ، وكان يقوم إلى الحوض مرة وإلى صينية القلل مرة أخرى إذا ما غابت فى المطبخ ليربها أو لينظر إليها . وكان فى كل مرة يرنو إليها فى وله وكأنما يلتمس منها ألا تغيب عن عينيه طويلا . وعاد إلى مقعده وقد نشر المجلة أمامه ، وما كان يقرأ شيئا بل كان ينظر من ثقبين فى المجلة ثقبهما بدبوس معه ، كان يرقبها من خلalهما ويعد عليها حرركاتها . وانتهى عمل كاترينا فعادت إلى الردهة وجلست على مقعد قريب من مقعد توفيق ، فوضع المجلة على ركبتيه والتفت إليها ولم يتكلم ، فقالت :
— ما تقرأ ؟

فقال فى خبث وهو يبتسم :

— روميو وجوليت .

فابتسمت ومالت برأسها إليه ، وقبل أن يخوضا فى الحديث ارتفع صوت الجدة :

— كاترينا .. كاترينا .

فقامت إلى جدتها بعد أن استأذنت منه ، وانتظر توفيق أوبتها ولكنها غابت فعاد إلى حجراته .

وحان أوان الغداء فدق الجرس ، فجاءت كاترينا فسألها أن تحضر غداءه ، فخرجت ثم أقبلت تحمل صينية عليها الطعام ، وسارت حتى اقتربت منه وانحنى لتضع الطعام أمامه فاقترب وجهها من وجهه ولفحتها حرارة أنفاسه ، فرفعت عينها فالتقت بعينه فرأت فيهما بريقا ما كان غريبا عليها فطالما رأته فى عيون النزلاء ولطالما عملت كاترينا جاهدة على إطفائه . واعتدلت كاترينا

وسارت لتغادر الغرفة ولكنها سمعت توفيق ينادى :
— كاترينا .

فالتفتت إليه من فوق ظهرها فقال :
— ألا تأكلين معي ؟ إني أكره أن آكل وحدى .
فهزت رأسها بالنفى وقد انفرجت شفتاها وخطت خطوات ، وأراد
توفيق أن يبقيا في الغرفة فضرب بيده كوب الماء ، فسقط على الأرض فتهشم .
وأقبلت كاترينا لتجمع الزجاج المتناثر ، وقام توفيق ليعاونها في جمع الزجاج
وقد التقت يده بيدها مرات واصطدم رأسه برأسها وهما ينثنيان لالتقاط قطعة
من الزجاج فضحكا . وتم جمع الزجاج المتناثر وجفف الماء ، وانتصبت كاترينا
وفي يدها حطام الكوب فمرر توفيق يديه على ذراعيها العاريتين وقال وهو ينظر
إلى عينيها :

— آسف يا كاترينا فقد سببت لك تعبا .

فقالت له وهي تبتسم :

— لا بأس .

وخرجت كاترينا وجلس إلى الطعام ولكن لم يجد له شهوة للأكل . وراح
يفكر في كاترينا ويتمنى أن تقبل لتروى ظمأ النفس ، وأكل لقمات ثم ترك
الطعام وقام إلى سريره يتمدد ويطلق لخياله العنان . ومد يده إلى الجرس فأقبلت
فسألها أن ترفع الطعام ، فتقدمت لتحمل الصينية فرأت الأكل لم يمض ،
فالتفتت إليه فقالت :

— أكلت ؟

— نعم .

وهمت بأن تسأله عما إذا كان الطعام لم يعجبه ولكنها وجدته قد أسبل

جفنيه فقالت :

— أتنام ؟

ففتح عينيه وقال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة :

— والله أكره أن أنام وحدى .

فتركته وسارت ، وقبل أن تغادر الغرفة التفتت خلفها من فوق كتفها ورننت إليه في دلال ، فأشار لها بأصبعه : تعالى .. فهزت كتفها هزات ، ثم ضحكت ضحكة خافتة ممدودة جعلت الدم الحار يتدفق سريعا إلى رأس توفيق ، فهب من سريره ، ولكنها فتحت الباب وانسلت في خفة الغزال .

وابتدأ النهار يفر ، وقبل أن يهجم الليل خرج توفيق قاصدا صينية القلل القريبة من المطبخ فاصطدم بكاترينا في الردهة الضيقة والتصق صدره بصدرها فطوقها بذراعيه وحاول أن يقبلها ، وقد كان مطمئنا إلى الظلام السائد في الردهة فهمست وهي تتصنع محاولة الإفلات من الذراعين الملتفتين حول خصرها :

— ليس هنا .. ليس الآن .

فغمغم :

— أتوافيني هناك ؟

فهزت رأسها موافقة ، فتركها بعد أن قبلها قبلة خاطفة لا يدرى أين سقطت . وانقضى من الليل شطره فأطفئت الأنوار ، ودخل توفيق فراشه وتمدد وحاول النوم فما كان يظن أن توافيه كاترينا سريعا ، وكان يحسب أن لا بد من مناورات تستغرق أياما ، ولكن لم ينقض كثير وقت حتى انبعث صوت صرير باب فتذكر ما سمعه بالأمس ، ولكن الصوت كان أكثر وضوحا فانتصب في سريره وقد أرهفت حواسه وزاد وجيب قلبه ، وتطلع نحو الباب في قلق فألقى باب حجرته يفتح بخفة وشبحا ينسل في رشاقة ويغلق الباب خلفه . إنها هي تسير على أطراف أصابعها فقام إليها ليستقبلها بين أحضانها .

ومرت دقائق قضت فيها كاترينا على الأحاسيس الفوارة التي ازدحم بها صدر توفيق وما تركته حتى انطفأ ذلك البريق الذي كان يشع من عينيه . ثم ارتفع صرير الباب ثانية ، ثم ساد سكون رهيب لم يكن يعكسه إلا صوت غطيظ توفيق .

وانقضت سنة وتوفيق في النزول لم يبحث له عن سكن ، فإنه ليجد فيه كل ما يحتاج إليه شاب أعزب . فلئن كان قد تضايق في أول الأمر من الأصوات الصادرة من أبواب غرف النزلاء التي تفتح وتغلق في حذر في جوف الليل ، انه قد اعتاد ذلك كما اعتاد مشاركة هؤلاء النزلاء في طعامهم . وفي يوم خرج الجميع إلى السفارة فوجدوا طعاما فاخرا لم يقدم إليهم مثله في النزول أبدا ، فتبادلوا النظرات ، ثم نظروا جميعا إلى كاترينا فابتسمت ، فقال توفيق :

— ما هذا اللغز ؟

فراحت الجدة تزف نبأ خطوبة كاترينا بصوتها القبيح ونطقها العجيب ، فنزل على الجميع وجوم ولم ينبس أحدهم بكلمة ، ثم قال توفيق :

— مبروك .

فوجد الآخرون لسانهم فأخذوا يهتفون ويتمنون لها أطيب التمنيات . وحملت كاترينا إلى دار الزوج الجديد فأخذ النزلاء يفرون واحدا إثر واحد ولم يبق إلا توفيق ، ولم يمنعه من الفرار وفاء ولكن كان قد عقد النية على الزواج ، فأراد أن يستجم . وقد صار هذا النزول أفضل مكان للاستجمام فلن يرى فيه إلا الجدة الشمطاء . ومرة الأيام وقد شغل توفيق بإعداد السكن الجديد فأعد كل شيء في مدينة الإسكندرية ، فقد كانت الزوجة من هناك وقد زين له أصهاره السكنى بينهم فوافق ، وفي يوم ترك توفيق النزول إلى العش الجميل .

وكرت الأيام تتبعها الشهور ثم السنين ، ورزق توفيق طفلا وسقط الطفل



وقبل أن تغادر الغرفة التفتت خلفها
من فوق كتفها ورنّت إليه في دلال

مريضاً وراح الطبيب يعوده وينصح باتباع هذا واجتناب ذاك ، ولكن لم تتقدم صحة الطفل العزيز . وفي يوم أشار الطبيب بجلب دواء فخرج توفيق يطلبه في المدينة كلها فلم يجده ، وقيل إنه يستطيع العثور عليه في الإسكندرية فعاد إلى الدار . فلما رأى ألم الغلام نظر إلى زوجه وقال إنه سينطلق إلى الإسكندرية ليحضر الدواء ، ولما كان النهار قد أدير فسييت بها ويعود مع الصباح . وهبط توفيق الإسكندرية فلم يفكر في المكان الذي يبيت فيه ، وانطلق إلى نزل كاترينا ، وفي الطريق تذكر أيام كاترينا فأنساه ذلك بعض ما يرضيه . وبلغ النزل وقد أحس إليه حنانا ، وراح يصعد في الدرج وقد عادت إليه الذكريات فانتشى بعض النشوة ، ورأى الجدة منتصبية فأسرع إليها وحيها فبالغت في الترحيب به ، ثم التفت فوق نظره على كاترينا جالسة وحدها فيمم شطرها . فلما رآته قامت تحييه في شوق ، وجلس بجوارها وأخذ بأطراف الحديث فعلم أنها جاءت الليلة لتبيت مع جدتها لأن زوجها قد سافر إلى القاهرة .

وانقضت السهرة ودخل توفيق حجرته . وأطفئت الأنوار وانبعث صوت لم يسمعه توفيق منذ سنين ، صوت صرير باب يفتح في حذر ، فأحس اضطراباً ما كان يحسه في الليالي الخوالي وشعر بقشعريرة تسرى في بدنه ولم يقو على النهوض وانحبس صوته ، فأقبلت كاترينا حتى وقفت عند رأسه ومالت عليه وقبلته فمات خوفه وجرى الدم حاراً في عروقه . وانقضى الليل وصاح الديك معلناً إقبال النهار الفضاح ، فانبعث صوت صرير الباب ثم عاد السكون كما كان .

وطلع النهار وخرج توفيق يبحث عن الدواء وقد ساوره قلق واضطراب ، وانطلق وهو يحس رهبة وانقباضاً وجعلت الأفكار السود تهاجمه . ورأى صيدلية فدلف إليها وسأل فيها عن الدواء فناولته الرجل زجاجتين ، سقطت من يده إحداهما ، وعلى الرغم من أنها لم تنكسر فقد تطير وتشاءم ، وأخذ الدواء

وانطلق إلى القطار وجلس ينتظر السفر فعادت الأفكار السود تهاجمه فمشى إلى صدره خوف . وسار القطار وظلت أفكاره جائئة في رأسه تعذبه وتضنيه . وحاول أن يطرد تلك الأفكار وأن يتخلص منها فأخرج من جيبه سلسلة جعل يلفها حول أصبعه في تبرم ، وجعل يخرج ساعته من جيبه وينظر فيها في ضيق ، وما تكاد ساعته تعود إلى مكانها حتى يعود فيخرجها . وتمنى أن يسرع القطار لتتقضى رحلة العذاب وتستقر نفسه القلقة ويستريح من أفكاره ، وراح يطل من شباك القطار لا يستقر له قرار . وتمت الرحلة فأسرع نحو الدار ، وكان كلما اقترب منها ازداد خفقان قلبه واحتلت الرهبة صدره . وصك أذنيه صوت أفزع صوت عويل طويل ، فتسمر في مكانه مشدوها وقد أحس قلبه يغوص في حذائه . ثم انطلق مفزوعا فأخذ العويل يتضح وكان منبعثا من داره ، فأحس نارا تشوى كبده وغصة تقف في حلقة ودموعا تمجرت في مقلته ، فقد مات ولده .

وسار مطأطئ البصر تكاد كبده تتفتت وقلبه ينهمر ، وانبعث من جوفه صوت واضح النبرات جعل يرن في أذنيه : مات بسبيك ، فجرت في أمسك فتخلي الله عنه ، صاع بصاع .

وأقبل الناس يعزونه فما كان يفقه ما يقولونه ، بل كانت جميع الأصوات تختلط في نفسه ويصدر عنها نفس الصوت الواضح النبرات : مات بسبيك ، مات بسبيك ، فجرت في أمسك فتخلي الله عنه .

وانزوى بعيدا فريسة طيعة لفكره ، يذرف الدمع السخين على ابنه الذى مات بسببه ، وجعل صوت ضميره يؤنبه ويخزه وخزا شديدا ما أقساه .

اللافئات فى الحكومة

وضع عم أمين رجله لأول مرة على عتبة وزارة من الوزارات ودخل وهو يتلفت في وجل ، فما دخل وزارة من الوزارات أبدا فهو رجل تاجر قضى عمره في حانوته لا يعرف الحكومة ولا تعرفه الحكومة إلا عندما تطالبه بتسديد ضرائبها ، فيدفع ما يطلب منه دون اعتراض ويحمد الله على أنه فض الحكام بسلام . وعم أمين رجل طيب لا يعرف طريق نقطة البوليس أبدا ، فإذا طلب هناك لمخالفة من المخالفات انطلق مسرعا مضطربا يحوقل ويدعو الله أن يكشف عنه الغمة التي نزلت به . وإن أبغض ما يبعضه هو الاتصال برجال الحكومة ، فإنه يعتقد أن الاتصال بهم بلاء يمتحن الله به عباده .

صعد عم أمين بضع درجات فراح قلبه يقفز في صدره ، وسمع رئيسا ينهر ساعيا من السعاة فغاص قلبه وأحس به يسقط في رجليه فراح يلعن ذلك اليوم الأغبر الذي استولت فيه الحكومة على بضاعة من عنده ، فاضطر بعد أن انقضت أشهر دون أن يعلم عن بضاعته شيئا أن يحجى للمطالبة بثمنها . وما كان يدور بخلد أن الحكومة العظيمة لا تفرق عن زبائنه من الموظفين الذين يزوغون أشهرا من دفع ما عليهم ، وكان يحس أن المبلغ سيدفع له عقب استلام البضاعة فورا ولكن الأيام مرت والمبلغ نائم في خزانة الحكومة في الأمن والصون . انطلق عم أمين في ممر طويل وراح يتذكر اسم القسم الذي أخبروه أن يستفسر منه عن مآل ماله فتذكر اسمه ، ولمح ساعيا يرتدى ملابس صفراء زينت بأزرار نحاسية صفراء لامعة فتقدم منه في تهيب وسأله في أدب :

— قسم الصرفيات من فضلك !

فأشار الساعى إلى حجرة في نهاية الممر بكبرياء ولم يفتح فمه بكلمة كأنما يخشى أن تفر اللائع من فيه إذا ما فتحه ، فشكره عم أمين وانطلق في الممر وهو يغتمغم:

« مالنا وقسم الصرفيات ؟ كنا في محلنا مكرمين وكانت بضاعتنا عندنا ، ولكن ما باليد حيلة هكذا شاء الله والحمد لله لا يحمد على مكروه سواه » .

وبلغ الحجرة التي أشار إليها الساعى ورأى على جانبها لافتة نحاسية كتب عليها « قسم الصرفيات » . وهم بالدخول ولكنه رأى لافتة كبيرة على الباب بخط كبير : « ممنوع الدخول بأمر سعادة وكيل الوزارة » . فنظر عم أمين إلى اللافتة في ذهول وتساءل : « من أين إذن نصرف مالنا إذا كان الدخول ممنوعا ؟ » . وراح يذهب ويحجى أمام الغرفة في تهرم وضيق ، وهم أكثر من مرة بأن يعود من حيث أتى ولكنه تذكر أنه دائن للحكومة بأكثر من ألف جنيه منذ أكثر من ستة شهور ، فكيف يعود وقد أخبره الموظفون من زبائنه أنه إن لم يجر وراء المبلغ ويطالب به فسيصله بعد سنوات إن شاء العلى القدير . وراح يفكر فيما كان يفعل لو أن هذا المبلغ كان رأس ماله كله ، أكان يخلق حانوته ويعلن إفلاسه ويقدم دفاتره ؟ وما تذكر هذا حتى ازداد غيظه وعزم على اقتحام باب قسم الصرفيات وليكن ما يكون ، ولتفعل به الحكومة ما تشاء .

وهم بدفع الباب ولكن خائته شجاعته وتعوذ بالله من الشيطان الذى وسوس له بدفع باب الحكام دون استئذان . ورأى فراشا جالسا بالقرب من الباب وقد غفا إغفاءة خفيفة فتقدم منه وهمس خشية أن يزعجه أو يكدر مزاجه الرقيق : « من فضلك » . فرفع الفراش عيني محمرتين وزام : « هيه » . فقال عم أمين فى رقة :

— لى مبلغ بسيط هنا وأحب أن ...

وقبل أن يتم عم أمين حديثه قال الفراش :

— ادخل سل ال ...

وعاد إلى إغفائه ثانية ، وراح عم أمين يتطلع إلى اللافتة الكبيرة التى تحرم الدخول بأمر سعادة الوكيل ، وهم أن يهز الفراش ليشير له إليها ولكنه دفع

الباب ودخل وقد اطمأنت نفسه بعض الاطمئنان ، فما كان يظن أن معضلة الدخول تحل هكذا سريعا . ووجد نفسه في حجرة طويلة قد رصت المكاتب على جانبيها وجلس في الصدر رجل كبير أبيض الشعر ، فنظر إليه ووقع نظره على لافتة علقت فوق رأس الرجل كتب عليها بخط جميل كبير : « وقتنا للعمل » . وكان الرجل غارقا في قراءة صحيفة من صحف الصباح ، فأدار عم أمين عينيه في المكان فرأى اثنين جالسين على مكتب واحد يتناولان الإفطار ، وآخر يرشف في فنجان قهوة ويشد أنفاسا من سيجارة أمامه ، ومكتبين خاليين . واستقرت عيناه ثانية على اللافتة وأعاد قراءتها : « وقتنا للعمل » . فعجب ، وسار إلى الرجل الكبير حتى إذا بلغ مكتبه وقف صامتا ينتظر أن يفرغ الرجل من قراءة الصحيفة التي في يده . واستمر الرجل في القراءة وانقضى وقت كبير فضاق صدر عم أمين ، ولكنه كظم غيظه ولم يجرؤ على أن يفتح فاه حتى لا يضايق السادة الكرام ! وأخيرا وضع الرجل الصحيفة على المكتب واعتدل في كرسيه فاطمأن عم أمين فقد فرغ له ، وهم بالسؤال ولكن الرجل قال : « والله أمر عجيب » . فارتجف عم أمين وظن أن الرجل سيوجهه على اقتحامه الغرفة المقدسة فهم بالفرار ، ولكن الرجل استمر في حديثه : « أمر عجيب حقا ، كان معي حتى التاسعة مساء صحيفا معافا وأقرأ نعيه في الصباح ! . مسكين إسماعيل بك ، كنا زميلين في المدرسة وسافرنا إلى السودان معا وابتدأنا في درجة واحدة ، ولكنه كان محظوظا فقفز وقفز ورسبت أنا في القرار . مسكين إسماعيل بك ، بل المسكين أنا ، بل المسكين هو فما أخذ معه شيئا . والله ليخيل إلى أن الدنيا تخذعنا جميعا ، كنا أنا وإسماعيل بك .. » واستمر يقص قصته ويبدى ويعيد ، وانقضى نصف ساعة أو يزيد وعم أمين يتميز غيظا ، ومما زاد في مضايقته أنه كان مضطرا إلى مجارة مرعوسى الزجل الذى كان يقص عليهم قصته فكان يهز رأسه مثلما يهزون ويتسم عندما



فقال عم أمين في رقة : لي مبلغ بسيط هنا وأحب أن...

يبتسمون ويطقطق بشفتيه مثلهم عندما يطقطقون . وانتهى الرجل من قصته المملة . ونظر إلى الواقف أمامه في عجب كأنما لم يره قبل الساعة وسأله : « نعم ؟ » .

فابتدأ عم أمين في سرد قصته بنبرات مرتعشة بعض الشيء :
— استولت الحكومة من ستة أشهر على بضاعة من ...
فأشار الرجل إلى مكتب بالقرب من الباب وقال :
— هناك .

واتجه عم أمين إلى المكتب المنشود فألقى موظفا غارقا في ملفات كثيرة لا يكاد رأسه يظهر منها ، وقد علق خلفه لافتة كتب عليها : « ممنوع الاستعلامات » . فوقف برهة لا يجرؤ على أن يحرك ساكنا . وقام الموظف دون أن يلتفت إلى الواقف أمامه وانطلق إلى التليفون وأدار قرصه ، وراح عم أمين يرقبه فألقى أسارير وجهه تنبسط ثم يبتدئ في الحديث : « آلو .. لولو ... صباح الخير يا لولو ... أين كنت بالأمس ؟ كنت في جهنم ... جهنم الحمراء ... هاهاها ... لا فرق بين البلد وجهنم ... لا أطيق البعد عنكم يا روحى » .. ووقع نظر عم أمين على لافتة جميلة فوق التليفون كتب عليها « للمحادثات المصلحية فقط » . وعاد الموظف إلى مكتبه بعد انتهاء المحادثة المصلحية الهامة ، فابتسم عم أمين له ابتسامة عريضة ولكنه لم يلتفت إليه وجلس يقلب في الملفات المكدسة أمامه في إهمال . وعيل صبر عم أمين فتشجع ونطق « تسمح يا سعادة البك » . فاعتدل البك في جلسته وقال في غطرسة :
— أفندم .

فقال عم أمين في أدب :

— استولت الحكومة من ستة أشهر على بضاعة من عند محسوبك أمين عبد العال ، وجئت لأستفسر عن ...

— سل فى قسم المحفوظات .

خرج عم أمين ينفخ غيظا ويلعن اليوم الذى اضطره إلى مقابلة السادة الكرام ، وراح يسأل عن قسم المحفوظات فدلوه عليه ، فانطلق حتى بلغه فرأى على بابه لافتة من اللافتات العتيدة كتب عليها : « ممنوع الدخول » فلم يأبه لها فقد علم أن اللافتات فى الحكومة ككشف التسعيرة عند التاجر لا بد من تعليقه ولا يعمل به ، فدفع الباب ودخل فوجد أناسا كثيرين يتخطفون ملفات عديدة ، والتفت إلى جواره فرأى لافتة كتب فيها : « ممنوع منعا باتا أخذ ملفات » . وخطر له خاطر فأخرج من جيبه قلما وأضاف « بأمر سعادة وكيل الوزارة » وابتعد عن اللافتة وراح يقرأها من بعيد وقد أحس ارتياحا ، وغمغم : « هكذا أفضل ، فقد أصبحت لافتة كاملة » . وانطلق يتفرس فى وجوه الموظفين العديدين الذين يعملون فى هذا القسم الكبير فوق نطره على أحد زبائنه فأسرع إليه وحياه ، فنهض الموظف وبش فى وجهه وقال له :

— ما جاء بك إلى هنا يا عم أمين ؟

— لى موضوع بسيط ، فقد استولت الحكومة من ستة أشهر على بضاعة ولم أقبض ثمنها حتى الآن .
— انتظر حتى أعود .

وقام الموظف ولم يغب طويلا ، وعاد وقال لعم أمين :

— الأوراق أمام السكرتير المالى .

— متشكر ، وهل تتأخر الأوراق عنده كثيرا ؟

— المسألة مسألة حظوظ .

— إن كانت مسألة حظوظ فلتطمئن ، وليعوضنا الله خيرا فى مالنا .

فضحك الموظف وقال :

— اطمئن سيصلك (شيك) قريبا .

(همزات الشياطين)

وسلم عم أمين وخرج وقد عزم على العودة من حيث أتى ، وفيما هو يقطع
الممر الطويل وقع نظره على لافتة كتب عليها « السكرتير المالى » فوشوس له
شيطانيه : « لم لا يدخل على السكرتير المالى ويرجوه أن ينهى أوراقه المعلقة ؟
وأعجبته الفكرة فيمم صوب الغرفة ، ووقع بصره على اللافتة العتيقة :
« ممنوع الدخول » فابتسم ونظر إليها كأنما يقول لها : « إني أدرى الناس
بقيمتك » . واندفع صوب الباب ودفعه ودخل دون أن يلتفت إلى الساعين
الواقفين بالباب ، وقبل أن يقطع فى الغرفة خطوات أحس يدين توضعان على
كتفيه وتجذبانته إلى الخارج ، ولما أصبح فى الممر أخذ هذا يدفعه فى صدره
وذاك يجذبه من كتفه وهذا يصيح : « أو كالة هى ؟ » . وذاك يهتف : « كيف
تقتحم الباب وتدخل بلا استئذان ؟ » . وتحمل الإهانات صابرا ، وما إن واته
فرصة الزوجان حتى انفتل وترك الوزارة وهو يعجب فى نفسه أشد العجب من
الحكومة ولافتات الحكومة .

- مالك مطرقة ؟
— لا شيء .
— ولكن وجهك يفصح عن قلق ، فما يقلقك ؟
— لا شيء .
— أتخفين عني همومك ؟ أنا صديقتك الوحيدة ورفيقة صباك وموضع
سرك ، بالله ما يقلقك ؟
— إني حزينة .
— مم ؟
— من أجلك .
— من أجلى أنا ؟
— أجل أما بلغك ؟
— وما بلغني ؟
— أما بلغك أن زوجك سيتزوج ؟
فأحست الزوجة كأن طعنة قاتلة صوبت إليها وكأن شيئاً سقط في
صدرها وكأن قلبها يغوص وكأن غشاوة أسدلت على عينيها . وهمت أن
تصرخ مستفسرة « زوجي أنا ؟ » . ولكن حبس صوتها وأحست غثيانا
ودوارا ، فمدت يدها وقبضت على الكرسي الجالسة عليه خشية أن يميدها .
ورأت صديقتها ما اعتري وجهها من اصفرار وما بان عليها من فزع فشعرت
بندم على ما بدر منها ، وأرادت أن تعتذر عما سببت لها من ضيق فقالت :
— إني آسفة ما كان لي أن أخبرك ، ولكن الناس جميعا يتحدثون بهذا فلم
أطق أن أدعك حتى تلطمك الحقيقة ، بل رأيت أن أصارحك لعل في معرفتك

ما يمنع وقوع الكارثة .

— هذا محال لا يمكن تصديقه ، زوجى أنا يتزوج ؟ ومن ؟

— والله لا أدري ، هذا ما يتحدث به معارفك .

— لا أصدق ، إنه يحبني ، أجل يحبني .

— حذار أن تطمئننى إلى الرجال .

— ولكنه يحبني ، إني أجزم بهذا . أمن العسير أن نعرف شعور من يحبنا ؟!

— إنهم يتصرفون أحيانا كما يتصرف الأطفال ، إن إحدى صديقاتي أمضت

وزوجها ليلة هائلة سعيدة وفي الصباح تلقت ورقة الطلاق .

— هذا فظيع ، إن زوجى طيب القلب لن يقترف هذا الجرم أبدا .

— لعلها استغلت طيبة قلبه فألقت عليه شباكها ، فلما وقع في أسرها لم

يستطع فككاكا .

— من هي ؟ من هي ؟ قولى .

— لا أعرفها .

— بل تعرفينها وتكرين ، أتودين تعذيبى ؟ أيلد لك أن ترينى فى حيرتى

وقلقى ؟!

— ترفقى بى ولا تكونى قاسية ، لو كنت أعلم من هي لأخبرتكَ .

— قد يكون الأمر مختلفا ، مجرد إشاعة .

— قد يكون ، وقد أخبرتك لتأخذى الحذر .

— ولكن زوجى لم يغيب عن البيت أبدا .

— وهل من الضروري أن يغيب عن البيت ، إنه يستطيع أن يقابلها نهارا .

— وإن معاملته لى لم تتغير ، فما زال يدللنى كما كان يدللنى دوما .

— إنهم يفعلون ذلك دائما ، وإنهم ليبالغون فى تدليلنا إذا ما أخطئوا فى حقنا

ليخفوا عواطفهم الحقيقية نحونا .

— إن زوجي لا يستطيع أن يكبت عواطفه ، إلى أعرفه جيدا . إنه إذا غضب ظهر الغضب في وجهه وإذا فرح بان الفرح في عينيه . إن وجهه مرآة صافية لنفسه .

— إننى بلغتك ، ولن تخسرى شيئا إذا ما أسأت الظن به حتى تنجأ الحقيقة ويظهر المستور .

— ولكن هذا فظيع ، إن مجرد التفكير في أنه سيتزوج يذهب بعقلي .
— ترفقى بنفسك ، فما دفعنى إلى الإفضاء إليك إلا حبى لك وخشيتى من أن يكون للخير نصيب من الصحة ، فلو كتمته عنك حتى ينتهى الأمر لأبني ضميرى . وإنى أظن أنى قمت بما ينبغى على الرغم مما فى القيام به من ألم على نفسى .

— إنى لك شاكرة .

— لا تجعلى الغضب يملكك ، ولا تثورى ولا تظهرى ريتك ، وارقبى كل شىء بانتباه .
— سأحاول .

وخرجت الصديقة بعد أن أضرمت نار الغيرة فى صدر الزوجة وتركتها وحيدة لفكرها ، فاستبد بها وأخذ يؤجج نار الشك فاندلع لهيبه واستمر يلسعها لسعا قاسيا فتأوهت ، واستمر فكرها فى تعذيبها فضاق صدرها بتلك النار التى تنهشها . وأحست به قد ضاق بما يعتمل فيه من أحاسيس وأنه يكاد ينفجر ، وأرادت أن تسكب دموعها لتطفى ما يشتعل فى صدرها ولكن ما بال دموعها قد تحجرت فى مآقيا وعهدا بها سريعة الجريان ؟ وبلغت نار صدرها حلقها فشعرت بجفاف فيه قاتل ، وسرت النار حتى بلغت وجهها فارتفعت حرارتها وأحست كأن دمها يكاد ينبثق . ومر الوقت وتبدأ رهيبا ، وتمنت أن يعود زوجها سريعا ليريحها من عذابها وينقذها من فكرها الذى شن

حربه وأخذ يطعنها طعنات تمزق قلبها وتحرق كبدها .

استمرت الزوجة فريسة لأفكارها يقلقها الشك ويعذبها الفكر . وبلغ الضيق بها منتهاه فراحت تقطع غرف الدار قلقة مضطربة تتطلع إلى ساعة الحائط بين الفينة والفينة . إنه تأخر اليوم عن مواعده وما كان ليتأخر ، فهلا يعود فيقضى على قلقها ويريحها من فكرها ؟ ولكن هتف بها فكرها : « إنها لا تخطر له على بال الساعة ، فإنه هناك مع حبيبة القلب ينعم بقربها ويسعد بعطفها » . فازداد عذابها وارتمت على مقعد قريب ضيقة الصدر تحس اختناقاً ، فراحت تزفر بشدة وتلتقط الهواء بصعوبة ، واحتلت الغصة حلقها وتصلبت عضلات فمها . إنها لتود أن يعود الآن لترتمي في أحضانه وتلقى برأسها على صدره ولتنخرط في بكاء طويل ينفس عما اختزن في صدرها من أحاسيس كادت تقضى عليها .

وسمعت طرقة على الباب فعلمت أنه قد عاد ، فشعرت بفرح ممزوج برهبة . إنها فرحة بعودته خائفة مما قد تقرأ في عينه . وبدلاً من أن تهوّل نحو الباب وتفتحه وترتمي في أحضان زوجها وتنخرط في البكاء كما كانت تتمنى من لحظات فقد ثاقلت فازداد الطرق ، فهضمت متصنعة التراخي وفتحت وقد قطبت جبينها وعيبت ، فدخل زوجها يدندن وقد ظهر البشر في وجهه ، فانقبض صدرها وسأله في غضب :

— ما بالك تأخرت الليلة ؟

— قابلت بعض الأصدقاء وأخذنا في الحديث فانقضى الوقت دون أن

نحس به .

ودخل غرفته وخلع ملايسه وهو يصفر لحنا مفرحاً ، وخرج بهز رأسه طرباً فألقى زوجه لا زالت مقبلة فقال لها :

— مالك ؟

— وهل أهمك ؟ لو كان لي عندك وزن لما تركت الكلبة وحدها تنتظرك حتى الساعة .

— أكل هذا الغضب لأنى تأخرت قليلا ؟ تعالى ولا تغضبي .
واقترب منها ولف ذراعيه حول خصرها ووضع ذقنه فوق رأسها وأخذ يداعبها ، فكادت نفسها تصفو واستسلمت لدعاباته . ولكن رن في أذنها صوت صديقتها : « إنهم ليبالغون في تدليلنا إذا ما أخطئوا في حقنا ليخفوا عواطفهم الحقيقية نحونا » . فأحست دمها يفور في عروقها ففكت ذراعيه الملفوفتين حولها بخشونة ونفرت منه وهى تغمغم :

— دعنى ... دعنى .

فنظر إليها نظرة استنكار ، ثم اقترب منها وقبض على ذقنها بيده ونظر في عينيها وقال لها :

— قولى ما بك ؟

فصمتت وأسبلت عينيها فساء لها :

— أتشكين شيئا ؟

فتركنه واتجهت إلى مقعد قريب وأشاحت بوجهها عنه فأحس ضيقا ، ولكنه تذرع بالصبر وقال لها بصوت حاول ألا ينم عن غضبه :

— ماذا حدث ؟ ألا تتكلمين ؟

فظلت على صمتها وعبوسها فجلس على مقعد آخر وأطرق . وانقضت مدة وهما في إطراقهما وصمتهما ، ثم رفع رأسه وراح يصفر فغاضها منه ذلك وحسبت أنه تعمد إغاضتها ، وحاولت أن تكبت ما تحس به ولكنها لم تستطع فانفجرت صائحة :

— ألا تكف ! إنك تحطم أعصابى .

— وأنت ألا تخرجين عن هذا الصمت ، إنك تضايقينى .



لو كان لي عندك وزن لما تركت الكلبة تنتظرك حتى الساعة

فأجهشت بالبكاء وقالت والعبرات تخنقها :
— أضايقك ؟ أجل أضايقك . إني أحس ذلك لقد ضقت ذرعا بي ،
أصبحت حملا ثقيلا عليك تود أن تتخلص مني . سئمتني .. قل إنك
سئمتني .

فنهض عن مقعده واتجه إليها ووضع يده على كتفها ، وما إن أحست يده
حتى هبت واقفة وتركته ودخلت غرفتها وارتمت على سريرها تبكى
وتنتحب .

* * *

أقلعت حمامة السلام في أعقاب تلك الليلة وتركت عش الزوجية لأعاصير
الغيرة وزوابع الخصام ، فما كان يوم يمر دون شجار لأتفه الأسباب فأصبحت
الدار جحيما لا يطاق . وكان الزوج يعجب في نفسه لهذا التغير الذي طرأ على
زوجته دون أن يدري له سببا ، وكان يتسامح معها كثيرا ويتحمل كثيرا لعل
يثوب إليها الرشاد ولكنها تبادت في الشجار ، فما كان منه إلا أن كان يقابل
الأذى بالإيذاء . لقد علم أن غيابه عن البيت يؤلمها فتبادى في الغياب فارتقى
شكها حتى اقترب من مرتبة اليقين ، إنه يؤذيها لأنه وجد غيرها وأصبحت
بالنسبة إليه لا شيء . إنها أصبحت في حالة من القلق وإنه لخير لها أن يواجهها
بالحقيقة من أن يتركها فريسة لأفكارها التي لا ترحم ، وإنها لتحس نفسها
تدمى ، وتحس عقارب الغيرة تمزق قلبها تمزيقا . لقد نال منها الفكر حتى
هزلت وصارت كالخيال ، ستصفعه بالحقيقة وستصرخ في وجهه : « إنك
ستزوج » . فتطلق ذلك الخبر الذي حبسته في نفسها فعذبها وأضناها .
ستجابه بالحقيقة فإن وقوع البلاء أهون من انتظاره .
وعاد الزوج في الثالث الأخير من الليل فوجد زوجه مقطبة متأهبة

للنضال ، فاستعد ليرد الصفعة صفعات . لقد عودته على أن يهينها فاعتاد ،
وابتدأت الزوجة في الصباح :

- أين كنت .. أين كنت حتى الآن ؟
- هذا من شأني ولا يسأل الرجل أين كان .
- أصبحت الحياة معك لا تطاق ، والله إن الحياة معك حرام .
- ما الذي يضطرك إلى هذه الحياة ؟
- حقا ما الذي يضطرنى إلى هذه الحياة ؟ سأترك لك الدار ، أجل
سأتركها لك . ولكن لا ، لن أتركها لتحل هى فيها مكاني .. لن أتركها
أبدا .

- من هى التى تحل فيها مكانك ؟
- لا تحاول إخفاء شيء ، إنى أعلم كل شيء ، ستتزوج .. ستتزوج ...
- ومن قال ؟
- لا تنكر شيئا ، ستتزوج .
- ولو شئت أن أتزوج فما الذى يمنعنى من الزواج ؟
- لن يمنعك شيء ، ولكنى لن أمكث معك بعدها دقيقة واحدة .
- ولكنى لن أتزوج ، وما فكرت في الزواج .
- واقترب منها وقد عقد العزم على أن يعمل على إزالة تلك الفكرة التى
استولت عليها وأقلقتها ، ولكنها صاحت فيه :
- بل فكرت في الزواج ، وعزمت عليه لأنك تمنى ولدا ، ولكن أعلم
أن العيب ليس عيبى ، إن العيب فيك ، العيب عيبك .
- فأحس دمه يفور وأعصابه تضطرب وزمام أمره يفلت منه ، فيصيح دون
وعى :

— سأ تزوج ، وسأثبت لك أن العيب فيك وأنت عاقر .
فأجهشت بالبكاء ، وتركت المكان ودخلت غرفتها وأغلقت خلفها
الباب ، ومرت برهة عاد بعدها إلى الزوج هدوءه ، واستعاد في ذهنه ما نطق
به في غضبه فألقى نفسه قد طعنها طعنة في الصميم . ولو أنها طعنته بمثل ما طعنها
به إلا أنه رجل يتحمل الطعنات وينسى الإساءات وهي أنثى لن تنسى له أبدا
ما فاه به ما دامت على قيد الحياة ، وأراد أن يداوى ما سببه الكلام من جراح
فاتجه إلى الباب الموصد في وجهه ووقف أمامه وقال :
— افتحى .. افتحى إني آسف ، ما كنت أقصد ولكنك بدأت السباب .
افتحى .. والله ما فكرت في الزواج من غيرك ولا خطر لي الزواج على بال .
ولكنها لم تفتح ولم تصدق قوله ولم تفكر في أن تقبل عذره ، وظل الباب
موصدا .

* * *

ومرت أيام والخصام مستمر والنفور مستمر ، وما استطاعت الزوجة أن
تنسى إساءته أبدا . وكانت كلما همت بالنسيان تذكرت قوله لها إنك عاقر ،
فتزداد حقدا وغلا .
وسقط الزوج يوما فريسة لمرض عضال فأخذت الزوجة تسهر عليه ،
وازداد المرض على الأيام فساورها قلق ، وخطر الموت على بالها فارتجفت . إنها
لتخشى أن يخطفه منها فيحرمها منه إلى الأبد . وتمنت شفاءه ولكنها تذكرت
غريمتها ، فلئن أبل من مرضه فستخطفه تلك وتتركها لنار الغيرة تعذبها وتكويها
ففزعزت وصارت نهبا لأفكارها . إنها بين أمرين أفضلهما مر ، إنها ستفقده في
كلا الحالين ، ستفقده إذا مات وستفقده إذا برىء ، ولخير لها أن تفقده ميتا
من أن تفقده حيا تعذبها فكرة غريمتها دواما . أجل إنها لتتمنى أن يموت قبل أن

يتزوج غيرها فلنار الغيرة أشد إيلا ما من نار الترميل ، فما أسرع أن تجر الأيام
ستار النسيان على الموت .
وثقلت وطأة المرض على الزوج فلم يحتملها فقضى نحبه ، فأحست
الزوجة حزنا خفيفا ما لبث أن تلاشى وحل مكانه راحة وهدوء ، ووقفت
تلقى عزاء الناس ناعمة البال مطمئنة النفس ، فقد مات وهو لها ، لها
وحدها .

صَدِيقِي الْوَطَنِي الْبَاسِلُ

في ليلة من ليالى الصيف خرجت أضرب في شوارع القاهرة على غير هدى لا أقصد جهة بعينها ، وكان كل ما أبغى أن أقطع الوقت وأقتل الملل الذى استولى علىّ أخيرا . فما ابتدأت في قراءة كتاب حتى ألقيت به سريعا ، وما هممت بكتابة شيء حتى ألقيت بالقلم ضجرا ، فرحت أنتقل من شارع إلى شارع . وكثيرا ما كنت أجد نفسى في شوارع لا أعرف أسماءها ولكنى ما كنت أخشى أن أضل ، فالقاهرة « حلة وأنا مغرفتها » . ودلفت إلى شارع من الشوارع الفخمة ، وانطلق خيالى كعاداته يهيم في دنياه وغبت عما حولى برهة . وفيما أنا سائر وضعت يد على كتفى فهبطت من سماء خيالاتى والتفت خلفى ، فرأيت صديقا من أصدقاء الكلية وقد انفرجت شفتاه وظهرت أسنانه ومد يده فصافحته في شوق وكانت عيناي تتفرسان فيه . فقد تغيرت هيئته في السنين القليلة التى لم أره فيها ، فقد امتلأ جسمه وبرزت كرشه وظهرت عليه آيات النعمة فقد لاح لعينى أنه أبيض مما عهدته . وكانت ملابسه لا تقارن بما كان يرتديها في الكلية ، فبقدر ما كانت ملابسه بسيطة متواضعة بقدر ما صارت فخمة . ولم يدم صمتنا طويلا فقد هتف صديقى بسرور :

— أهلا .. أهلا .. أين أنت ؟

— فى الدنيا .

— وإلى أين ؟

— إلى الدنيا .

— تعال معى إلى النادى .

— والله ...



فقد امتلأ جسمه وبرزت كرشه وظهرت عليه آيات النعمة

— تعال .

وجذبني من يدي فسرت معه ، وراح يسألني عن عملي ويتحدث في ثقة
واطمئنان ، وبلغنا مبني فخما فتأخر وقال لي :

— تفضل .

فأفسحت له الطريق وقلت :

— بعدك .

— لا والله تقدم ، أنت ضيفنا الليلة .

فتقدمت واجتزت بابا كبيرا ودخل صديقي خلفي ، وما إن وقع نظر
بواب النادي عليه حتى هب واقفا وحياء مبالغا في الاحترام ، فرد صديقي
التحية بطرف أصبعه . وبلغنا درجا رخاميا واسعا فصعدنا متمهلين ، وقابلنا
أناسا صاعدين وهابطين وكانوا جميعا يفسحون للصديق الطريق ويحيونه في
احترام ، فعجبت وخيل إلي أن صديقي أصبح شيئا مذكورا . ودخلنا إلى
ردهة واسعة مؤثثة برياش فخم فانطلق صديقي وأنا معه حتى بلغنا صدر
المكان فجلس وأجلسني بجواره والتفت إلي وراح يتحدث عن ذكريات
الكلية . وأقبل بعض الشبان فلما لمحوا صديقي وفدوا عليه وسلموا في خضوع
ولم يرفعوا أبصارهم إليه كأنما هم في حضرة عظيم جليل القدر . وأشار إليهم
أن يجلسوا بجواره فجلسوا وقد ظهر البشر في وجوههم فكأنما نالوا خيرا
كثيرا ، والتفت الصديق إليهم يحییهم فوجدت فرصة لأجول بعيني في المكان
فأريت صورة زعيم من الزعماء السياسيين معلقة ، فأيقنت أننا في نادٍ سياسى
مشهور كثيرا ما سمعت عنه في أثناء المظاهرات ، وما عرفت النادي قبل وقوع
عيني على صورة الزعيم لأننى لا أفقه في السياسة لا كثيرا ولا قليلا لدرجة أنى
لا أعرف من وزراء أية وزارة عادة إلا رئيسها وعضوا أو عضوين من أعضائها
— أقصد وزيرا أو وزيرين .

ودار الحديث حول السياسة والسياسيين فلم أفهم شيئا وضقت ذرعا وهممت بالانصراف ، ولكن دار الحديث دورة لذيدة جعلتني أعدل عما فكرت فيه ، فإن صديقي ابتداء يقص على مريديه — هكذا خيل إلي — نوادر شجاعته ، فراح يقول : « ما أكثر مواقفنا الوطنية المشرفة . إن الوطن في حاجة دائما إلى من يبيعونه نفوسهم . إنى لأذكر حوادث كثيرة تأرجح الموت فيها فوق رعوسنا وفقر فاه لبيتلعلنا ، ولكننا كنا في كل مرة ننجو بأعجوبة . حتى صرت أعتقد أن الموت يرهب من لا يرهبه . عقب تصریح مستر هور قمت في الطلبة خطيبا أندد بالتصریح وأحضهم على الثورة ، فثار الطلبة واندفعوا إلى باب الكلية كبحر زاهر لينطلقوا في شوارع القاهرة يهتفون بسقوط هور وتصریح هور . وما إن بلغوا الباب حتى ألفوا الجنود قد أحاطوا بالكلية يمنعون الطلبة من الخروج ، فثار تائرتنا وجن جنوننا فأخذنا نخلع ما تصل إليه أيدينا ونقذف الجنود به . ورأى الضابط الموكل بالقوة المحاصرة أننا سنظهر عليهم فأمر جنوده أن يطلقوا النار إرهابا . فما دمدمت الرصاصات حتى فار الدم في عروقنا وأخذنا نقذف الجند بالحجارة ، فأمر الضابط جنوده باقتحام الباب فاقترحموه ودخلوا وضابطهم أمامهم شاهرا مسدسه ، فلما رأى الطلبة هجوم الجند المسلحين وهم عزل فروا إلى فصولهم وبقيت في فناء الكلية وحدى أتميز غيظا لانتهاك حرمة الكلية . أيجوز أن يدخل الجنود جامعا أو كنيسة وهم شاهرو السلاح ؟ بالطبع لا .. فكيف يجوز لهم أن يقتحموا كلية من الكليات وهي لا تقل قداسة عن المساجد والكنائس ؟ غاظنى منهم ذلك وانطلقت إلى الضابط الشاهر مسدسه ، ولما اقتربت منه فتحت له صدرى وصحت في وجهه : « هاكم صدرى فاضربوا . كيف تنتهكون حرمة الكلية ؟ كيف تجرؤون ؟ » فأرخى الضابط مسدسه والتفت إلى جنوده وأمرهم بالانسحاب السريع ، فخرجوا من الكلية وأنا واقف في الفناء وحدى كالمذهول .

وتفرس صديقى فى وجوه الحاضرين فألقى الانتباه الشديد قد ارتسم على
محياتهم ، وقد شخصت أبصارهم إليه وكأنما تعلقت بشفتيه ، فسر ذلك
وأرضى غروره وشجعه على أن يخوض فى حديثه المحبب إلى نفسه ، فألقى
بجسمه إلى الخلف وأسنده إلى مسند المقعد الوثير وقال : « وإنى لأذكر حادثة
أخرى زاملنى فيها الصديق (والتفت إلى فتخضب وجهى بدم الخجل) . فى
سنة من السنوات التى عطل فيها دستور الأمة كانت الجامعة أول من هبت
للمطالبة بإعادة الدستور الصحيح ، ولما كانت كليتنا بعيدة عن الجامعة فقد
خرجت قاصدا الجيزة ، وقابلت فى الطريق الصديق العزيز (والتفت إلى مرة
أخرى) وعرضت عليه مصاحبتى فوافق ، فانطلقنا حتى بلغنا حرم الجامعة
وكانت قلوبنا تحفق حماسة فى صدورنا ، ورأينا جموع الطلبة نائرة والخطباء
يخطبون ، ونزل خطيب عن منصته فلم أشعر إلا وأنا على المنصة وكأنما قوة
خفية دفعتنى إليها ، وارتجلت خطبة فخرجت الألفاظ ملتهبة كأنما كانت ذوب
نفسى ، فهزت القلوب ولعبت بالعقول وأطلقت الهتافات الحارة من
الحناجر ، وقبل أن أزايل مكاني هتفت :

— إلى الثورة .. إلى الثورة .

فجلجلت الأصوات وزلزل المكان وانطلقت الجموع الزاخرة تهتف :
« تحيا الثورة » . وتدفق الطلبة فى شارع الجيزة كنهز اجتاح سده وهتفوا
بسقوط الوزارة ، واستمررنا فى سيرنا قاصدين قلب القاهرة ، ولكن ما إن
بلغنا كوبرى عباس حتى وجدناه مفتوحا فوقفنا حيارى لا ندرى ما نفعل .
وقفزت إلى رأسى فكرة فاخترت ثلاثة وكان الصديق منهم (والتفت إلى)
فأنطلقنا وأخذنا زورقا وجدفنا حتى بلغنا الجهاز الذى يحرك الكوبرى
فأدركناه ، فأخذ الكوبرى يتحرك ونحن نهترطربا . وأخيرا تمكنت المظاهرة من
العبور فقفلنا بزورقنا عائدين وقفزنا إلى الشاطئ ورحنا نعدو لنلحق
بإخواننا ، وما إن لحقنا بهم حتى وجدنا جنودا قد انقضوا على المظاهرة

بالمراوى يحاولون تشتيتها ، وهوى جندى بهراوته على رأس طالب بجوارى ،
وفى نفس الوقت دمدم الرصاص ودوى فى المكان وسقط طالب مجدلا ، ففر
الجميع وهممت بالفرار إلى ملجأ يحمينى من الرصاص المتساقط ، ولكنى
ارتطمت بالطالب الذى أصابته المراوة وسقط بجوارى ففكرت فى حمله
وإبعاده عن الرصاص الطائش ، فنسيت نفسى ولم أفكر فى الموت الذى
يرفرف فوق رأسى وحملته على ظهرى وعدوت به إلى أقرب دار ودخلتها .
وصعدت به الدرج مسرعا ثم طرقت باب أول شقة قابلتنى ففتحت سيدة
كريمة طيبة . ما إن رأت حملى حتى أسرعت وساعدتنى على حمله وانطلقنا إلى
مقعد طويل مددناه عليه ، ثم عادت السيدة إلى الباب وأغلقتة وأحكمت
إغلاقه وأخذت أخلع ملابس المصاب وأجريت له الإسعافات اللازمة حتى
نح عينيه . وبعد قليل أقبلت السيدة وهمسست فى أذنى : « حوصر البيت
وبجى تفتيشه » . فلم أرتجف بل غمغمت : « فليكن ما يكون ففى سبيل
مصر كل شىء يهون » . وجلست بجوار المصاب أرفه عنه ، وخطر لى خاطر :
« إنى لا أهتم بما يكون ولكن هذا المصاب ما يكون مآله ؟ وأطرقت برهة
وقفزت إلى رأسى فكرة ، فاتجهت إلى السيدة وقلت لها : « إنى يا سيدتى لا آبه
للقبض على ، وإنى سأخرج الآن حتى لا يقبض علىّ عندك وحتى لا أسبب
لك المتاعب ، لقد كان بودى أن أحمل المصاب معى ولكنى لا أود أن أحمله ما
لا يطيق ، أفلا تتكرمين وتأذنين بنقله إلى السرير فإذا ما رأوه حسبوه قريبا لك
مريضا ؟ » فابتسمت السيدة وربت على كتفى وأقبلت وحملنا المصاب إلى
السرير ، ولما اطمأنت عليه التفت إلى السيدة وقلت لها : « وداعا يا سيدتى
وألف شكر » . وانطلقت إلى الباب ولكنها أسرعت إليّ وحالت بينى وبين
الخروج وهمسست : « لا تخرج .. لا تخرج .. سيلقون القبض عليك » .
فقلت : « وما فى ذلك ؟ دعينى بربك ولا تحرمينى هذا الشرف العظيم » .

فغمغمت : « لا تخرج » . فأجبتها وقد بان العزم في وجهي : « بل سأخرج ولن يقبضوا عليّ عندك » . ولما رأت عزمي قالت : « سأهبط معك حتى تمر من الحصار بسلام » . فيا لها من فكرة ويا لها من سيدة نبيلة ، وفتح الباب وهبطنا في الدرج وروحنا نتحدث دون أن نلتفت إلى الجنود الصاعدين أو الهابطين . وخرجنا إلى الطريق فألفينا نطاقا من الجند حول الدار فاجتزنا النطاق بسلام ، وسارت معي حتى ابتعدنا عن الخطر فمددت لها يدي وصافحتها وأنا أقول : « إني مدين لك بالشيء الكثير فأكرر لك شكري » . فصافحتني وهي تبتسم وقالت لي : « انطلق في حفظ الله يا بني » .

وارتسمت على وجه المحدث ابتسامة زهو راح ينقل عينيه في وجوه السامعين ، واعتدل في مقعده ليستأنف حديثه ، ولكنني قمت واستأذنت في الانصراف فأذن لي بعد إلحاح ، وصافجني بحرارة وهو يقول :

— لقد عرفت النادى فأرجو أن أراك كثيرا .

فخرجت أتمم وقد ابتسمت ابتسامة باهتة لا مدلول لها :

— بإذن الله .. إن شاء الله .

خرجت من النادى وانطلقت في الطريق فألفيت نفسي أفكر في حديث الصديق وأبتسم ، فقد صار صديقي وطنيا باسلا يروى مغامراته . ورحت أتذكر الحوادث كما وقعت فلم أجد للحادثة الأولى أصلا ، وكل ما أذكره أن زميلا لنا كان خطيبا ، فكان إذا ما مات طالب من طلاب الكلية اقترح إقامة حفلة تأبين لفتح له فرصة الثروة ، فكان في كل مناسبة — أظن في ثلاث مناسبات — يقف ليروى وطنية الفقيد فيذكر الحادثة على أنها وقعت للمرحوم ، ثم يفتح صدره ويصيح كما صاح الفقيد في الجنود : « هاكم صدرى فاضربوا » . ثم يخرج منديلا يمسح به دمعة متوهمة . هذا كل ما أذكره عن « هاكم صدرى فاضربوا » . أما الحادثة الثانية فإني أذكرها فقد كتبت أحد

بطلبها حقا ، ولكن لم أكن بطلا من الطراز الذى وصفه الصديق بل كنت
بطلا من طراز آخر . ففى يوم من الأيام بلغنا أن الجامعة ستضرب عن العمل
فرأيت أن الفرصة سانحة للتبرج ، فخرجت لأشاهد الإضراب من بعيد ،
وقابلت الصديق الباسل فسألنى عن وجهتى فأخبرته أنى ذاهب إلى الجامعة
لأشاهد ما يفعله إخواننا وعرضت عليه مصاحبتى . فرفض وقال لى : « مالك
وهذا ؟ تعال » . فألححت عليه وجذبتة من يده فانطلق معى كارها ، وفى
الطريق أعرب لى عن مخاوفه وقال لى إنه يخشى أن يفجأنا البوليس . فقلت له :
« لا تخف ، إذا سارت المظاهرة سرنا فى وسطها لا فى المقدمة ولا فى المؤخرة ،
فإذا ما وقعت الواقعة ودهمنا الجنود من الأمام أو من الخلف كان فى مقدورنا
أن نزوغ دون أن نصاب بشيء » . فأظهر إعجابه بالفكرة ، وبلغنا الحرم
الجامعى واستمعنا إلى الخطباء ثم تحركنا مع المتظاهرين ، وسارت فتيات
الجامعة فى وسط المظاهرة فكأنهن فطن بغريزتهن إلى أن الوسط آمن من
الطرفين ، أو لعلهن وصلن إلى هذا بتفكيرهن كما وصلنا نحن إليه بتفكيرنا .
فسرنا ذلك فانطلقنا مطمئنين ، ولم نكتف بالفتيات السائرات أمامنا بل رحنا
نتطلع إلى الشبابيك ونتفرس فى الفتيات اللاتى أسرعن ليشاهدن المتظاهرين .
وتوقفت المظاهرة وقيل إن جسر عباس مفتوح ، فانتحينا أنا وصديقى الباسل
مكانا قصيا وفكرنا أكثر من مرة فى أن نتجنب الشر ونعود من الطريق
الآخر ، ولما هممنا بالعودة تحرك الكوبرى ومر المتظاهرون وجرفونا معهم ،
فمررنا وقد أسلمنا أمرنا لله . وسرنا قليلا ولاح لنا رجال البوليس بملابسهم
البيضاء وفى أيديهم الهراوى تخلخلت . مفاصلنا . والتفت إلى الصديق وقال
بصوت مرتعش : « أعجبك ! » . فلم تتحرك شفتاى فقد كان الخوف
يملكنى ، ولم تمض لحظات حتى أحسنا حركة فى الصفوف الأولى ثم إدبارا
وفرارا ، فتأهبنا لنطلق سيقاننا للريح . ولكن قبل أن نتحرك رأينا الجنود قد

اختلطوا بنا وإذا بهراوة ترتفع وتهوى على رأس طالب منا قريب ، ودمدم الرصاص فذهلنا فأسرعت أنا وصديقى إلى الطالب المصاب لنحتمى به ولنجعله درعا نتقى به الضربات . ودوى الرصاص فى المكان فراح كل يجذب المصاب إليه ، ورأيت صديقى يحمله على ظهره ليتدفع به ، وليتلقى عليه الضربات الطائشة . وراح يعدو فلم أجد بدا من الالتجاء إلى أقرب شارع وأخذت أعدو وأعدو وأنا لا أدرى أين أقصد ، وأخيرا لحت تراما فعدوت خلفه وركبته مبهور النفس زائع البصر .

وفى اليوم التالى قابلت الصديق فعاتبني أشد العتاب وقص على بقية قصته ، لا كما قصها اليوم ، بل كما وقعت دون أن يزر كشها الخيال وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وهو يقص . قال : « حملت المصاب ودخلت به بيتا وألقيته على الدرج ولم ألتفت إليه ، ورحت أفكر فى حالى وإذا بباب يفتح وتخرج منه سيدة كريمة ، وما إن تقع عينها على المصاب حتى تسرع إليه وتحاول حمله ، فوجدت الفرصة سانحة للاختباء فحملته معها ودخلت عندها وأغلقت الباب خلفنا . وأخذت تسعف المصاب ومر الوقت وأنا سجين أتميز غيظا ، وانتهت السيدة من إسعافه والتفتت إلى ورأت الفرع مرتسما على وجهى فراحت تطمئننى ، ولكن من ذا الذى يطمئن والجنود صاعدون هابطون فى الدرج ؟ وكأنا رثت لحالى وأشفقت على فعرضت على أن تمررنى من الحصار فهملت بأن أقبل يدها ، ولكنها قالت : « هدى من روعك يا بنى وإلا فظنوا إليك » ، وخرجت معى وراحت تحدثنى وتبتسم وقلبى يدق دقا حتى خشيت أن يفضح أمرى ، وخرجت من الحصار المضروب على الحى فشكرتها وأطلقت لساقى العنان فأخذت أسابق الريح حتى قطعت المسافة بين جسر عباس ودير النحاس فى نفس واحد . ثم أردف : « ألا لعنة الله عليك ، كنت سأذهب فى شربة ماء » .

استعدت الحادثة في خيالي كما وقعت فانفرجت شفتاي برغمي
وغمغمت : « ياله من خيال خصب ، إنه ليصلح أن يكون قاصا ، ولكن ماذا
كان يستفيد لو أنه كان قاصا ؟ لا شيء ، إنه هكذا أفضل ، ممثل بارع يلعب
دوره بمهارة ويلبس ثياب البطولة ، ولن ينقضي كثير وقت حتى يخطر في
ثياب الزعامة ! » .

عَلَى كُلِّ لَوْنٍ

ارتفع صياح باعة الصحف معلنا تشكيل الوزارة الجديدة وراح الناس يقرءون الأخبار ويعلقون عليها ، وأظهر الجميع سرورهم وراحوا يخوضون في الوزارة المستقيلة وينعتونها بكل نقيصة . وكان الموظفون أكثر المتحمسين للوزارة الجديدة وأخذ يهنئ بعضهم بعضا ، وأتيحت للتلاميذ فرصة الزوغان فلم يتركوها تفلت فحملوا أعلامهم وركبوا الترام وانطلقوا لتهنئة الوزارة المنقذة . وبلغ الترام دار السينما فالتفت التلاميذ بعضهم إلى بعض ثم ترك معظمهم الترام ويمموا صوب السينما وأسرعوا حتى لا تفوتهم حفلة الساعة العاشرة . واستأنف الترام سيره يحمل فلول المتظاهرين إلى لاطوغلى ليحيوا الوزارة مع المحيين . وأقبلت الهيئات تحمل أعلامها ، وارتفع الهتاف بسقوط الظلم وبجياة العهد الجديد حتى بلغ عنان السماء . وخرج رئيس الوزراء لتحية المهنيين فدوى التصفيق واستمر الهتاف حتى بحت الأصوات ، وانصرف الجميع والكل يأمل أن يناله خير في ظل العهد الجديد .

ووقفت سيارة الوزير الجديد عند باب وزارته فخف الموظفون المنتظرون تشريفه عند الباب إلى السيارة وامتدت مئات الأيدي تفتح بابها ، وهبط الوزير فالتفوا به وراحوا يصافحونه وقد ارتسمت ابتسامات عريضة على وجوههم وiban الحبور عليهم ولثموا يده ؛ وسار الوزير فساروا خلفه خفافا ظرافا مستبشرين فرحين ، بلغ باب مكتبه فامتدت مئات الأيدي لفتح الباب ، واستقر الوزير في مكتبه وابتدأت الوفود تترى هاتفة بجياة الوزير الجديد ، ودخل موظف أنيق وتقدم نحو الوزير وصافحه وانحنى حتى كادت جبهته تلم الأرض ثم اعتدل وقال : إن سرورنا اليوم يا معالي الوزير لا يعدله سرور ، ولولا علمنا أن معاليكم لا يجب تعطيل العمل والمظاهر الكاذبة لتركنا جميع الموظفين

يدخلون لتهنئة معاليكم وإظهار عواطفهم الجياشة . إنهم يا معالي الوزير يرجون إلى معاليكم تهنئتهم الخالصة ، ويشكرون الله أن هيا لهم وزيرا عادلا شهما كريما نزيها أيما مثلكم .

ولم يكن هناك موظف واحد على مكتبه عندما كان عباس ذلك « الموظف اللبق الأنيق » يقدم نفسه إلى الوزير بظرف وكياسة . فقد كان جميع موظفي الوزارة في غرفة الوزير .

واستمرت الوزارة تعج بالمهنيين من كل لون كأنما أصبحت الوزارة معرضا من المعارض أو مولدا من الموالد . وأخيرا هدأت الحال وراح الوزير يفكر فيمن يسند إليه إدارة مكتبه فراح يستعرض في ذهنه من يثق فيهم ، فرأى أن عباس أكفأ من يصلح لهذا فهو شاب نشيط مثقف مخلص ، رجل يعتمد عليه فعينه مديرا لمكتبه .

كان عباس طويل القامة ضخم الجسم عريض الكتفين قمحي اللون ، إذا تكلم تكلم بصوت هادئ . وما كان يضحك أبدا أو يمازح أحدا بل كان يتخذ هيئة الجد وكان طابع الوقار يدمغه ، وقد كانت ضخامة جسمه من دواعي هيئته واحترامه . ومما ساعد على توقيره أننا سطحيون نحكم بالظواهر وإن ظاهره ليدل على رجولة ونضج مكتملين . وقد كان عباس قوى الحجة يستطيع أن يقنع محدثه ويستولى عليه بسهولة ، وهناك مثل عامي يقول : « كل طويل هبيل » ، ولكن هذا المثل لا ينطبق على عباس فإنه ماكر أمكر من ثعلب ، يتظاهر بالبراءة والطهر والصراحة ويتقن تمثيل ما يتظاهر به حتى ليخال أعرف الناس بأخلاقه أنه صادق . ولعباس القدرة العجيبة على إيهامك أنك صديقه الوحيد بطريق غير مباشر دون أن يثير ريبتك أو يحرك شكوكك ، وهو يكيده لك ويوهمك أن هذا الكيد في صالحك ، وهو أناني لأقصى حدود الأنانية فما كان يتورع عن أن يصعد على أكتاف الآخرين ،

وما كان يستنكف من أن يستعمل أقدر الوسائل في إقصاء من يظن أنهم منافسوه أو من يظن أنهم قد يصبحون منافسين له في يوم من الأيام . وما كان يطبق أن يرى خيرا يصيب غيره فإن شعر أن غيره سيناله درجة أو علاوة عمل على عرقلتها ، ولا يهدأ له بال إلا إذا منعها . وإن نال أحدهم علاوة أو ترقية أحس ضيقا وغيظا كأنما اغتصبت اللقمة من فيه وضاع منه حق من حقوقه . ولم تظهر أخلاق عباس هذه على حقيقتها أول ما أصبح مديرا للمكتب الوزير فإنه كان يعمل على توطيد مركزه أولا ، ولما استقر له الأمر ونال الدرجة الخامسة بان المستور وعرف الجميع أنه إنسان خطر ، لا يؤمن جانبه ، إلا الوزير فقد أيقن أنه أكفأ موظف في وزارته . وما بهم عباس من غضب الناس إذا كان الوزير عنه راضيا ؟

و شاء عباس أن يوهم الوزير أنه يعمل ليل نهار ، فكان يعود إلى الوزارة في المساء ولا يكتفى بإضاءة مكتبه بل كان ينير مكاتب الوزارة جميعها حتى إذا سأل إنسان عما هناك وعن الدافع إلى ذلك ، كان الجواب أن عباسا يعمل لإنجاز الأعمال المتراكمة في الوزارة . وقد رأى عباس أن توجهه إلى الوزارة ليلا قد وفر له ما كان ينفقه في القهوة فأصبح لا ينقطع عن الوزارة حتى في أيام العطلة الرسمية . وطغى عباس فمنع رؤساء الأقسام من الدخول على الوزير لعرض أوراق أقسامهم ، وكان يجمع أوراق الأقسام جميعها ويعرضها هو على الوزير ملمحا إلى أنه هو الذي أنجزها ونسقتها .

واجتمعت لجنة شئون الموظفين وقررت ترقية عباس إلى الدرجة الرابعة . واستقالت الوزارة وارتفع صياح باعة الصحف معلنا تشكيل الوزارة الجديدة وظهر السرور على وجوه الجميع ، وابتدأ الناس كما هي العادة ينهشون عرض الوزارة المستقيلة وينعتونها بكل نقيصة ، وأتيحت للتلاميذ فرصة الزوغان من المدرسة كما أتيحت لإخوانهم من قبل فحملوا أعلامهم وانطلقوا لتحية الوزارة الجديدة ، ولما وصل ركب المهتئين إلى دار السينما حدث مثل



وكان يجمع أوراق الأقسام جميعها ويعرضها على
الوزير ملمحا إلى أنه هو الذي أنجزها وتسقها .

ما حدث من سنين فقد انسل معظمهم إلى السينا واستمر الباقون إلى لاظوغلى . وهناك اجتمعت الهيئات التي اجتمعت من قبل سنين لتهنئة الوزارة المستقلة لتقوم بتهنئة الوزارة الجديدة ، وكانت تلك الهيئات تحمل نفس الأعلام التي كانت تحملها يوم جاءت لتحية العهد الذى ولى . وبان البشر والسرور وارتفع الهتاف حتى بلغ عنان السماء بنفس الهتاف الذى ارتفع من قبل ، بسقوط الظلم وحياة العهد الجديد . وأطل رئيس الوزارة لتحية المهنيين فدوى التصفيق واستمر الهتاف حتى بحت الأصوات ، وانصرف الجميع والكل يأمل أن يناله خير فى ظل العهد الجديد .

ووقفت سيارة الوزير الجديد عند باب وزارته فخف الموظفون المنتظرون تشريفه بالباب إلى السيارة ، وكانوا نفس الموظفين الذين كانوا فى استقبال الوزير السابق ولم يزد عليهم إلا عباس ، واستقبلوه بنفس الحفاوة التى استقبل بها سلفه ، وكان فرحهم به لا يقل عن فرحهم بالوزير المستقيل . وسار عباس بجواره يتسم ، وأقبل الموظف الأنيق ولم يطق أن ينتظر حتى يدخل الوزير مكتبه ليلقى خطبته التقليدية بل راح يقول وهم سائرون « إن سرورنا اليوم يا معالى الوزير لا يعدله سرور ، ولولا علمنا أن معاليكم لا يحب تعطيل العمل والمظاهر الكاذبة لتركنا جميع الموظفين يدخلون لتهنئة معاليكم وإظهار عواطفهم الجياشة . إنهم يا معالى الوزير يزجون إلى معاليكم تهنئتهم الخالصة ويشكرون الله أن هيا لهم وزيرا عادلا شهما كريما نزيها أيا مثلكم » . وبلغوا مكتب الوزير فأسرع عباس وفتح باب المكتب وانحنى كما ينحنى الممثل لجمهور المصفيق المعجبين ، ودخل الوزير ودخل عباس خلفه وأغلق الباب وراءه وترك جميع الموظفين فى الخارج يتميزون غيظا .

توطدت العلاقة بين عباس والوزير الجديد ، وكان لا عمل لعباس إلا السخرية من الوزير السابق واختلاق النوادر التى تدل على جهله بالعمل

وكيف كان هو ينقذه من مأزق عديدة . وفي يوم ألقى عباس نكتة رائعة عن الوزير السابق فضحك الوزير الجديد حتى كاد يستلقى من الضحك . واجتمعت لجنة شئون الموظفين في نفس اليوم وقررت ترقية عباس إلى الدرجة الثالثة .

ولما كان عمر الوزارات في مصر قصيرا كعمر الورود فقد استقالت الوزارة وارتفع صياح باعة الصحف معلنا عودة الوزارة السابقة ، وابتدأ المؤلف من الخوض في الوزارة المستقيلة والفرح بالوزارة الجديدة وخروج التلاميذ بأعلامهم للتهنئة وذهاب معظمهم إلى السينما ، واتجاه نفس الهيئات ونفس الوفود إلى لاظوغلي والتهافت بنفس الهتاف وسقوط الظلم وحياة العهد الجديد . ولو أنصفوا لهتفوا « يحيا أي وزير جديد » . وأطل رئيس الوزارة على الوفود فارتفع الهتاف بحياة منقذ الشعب ودوى التصفيق ، وانصرف الجميع والكل يأمل أن يناله خير في ظل العهد الجديد .

وعاد الوزير الذي عين عباسا مديرا لمكتبه أول مرة ففرح الموظفون وأخذوا يهنئ بعضهم بعضا ، لقد عاد الوزير الذي سيرحمهم من عباس ودكتاتورية عباس ، فقد انكشف أمره ولن يستطيع أن يلعب على الرجل مرتين ، أما تنكر مرة للوزير بعد استقالته وما فكر في زيارته بعد ترك الوزارة مرة واحدة؟! وكان يزوره كل يوم وهو في الوزارة ؟ لقد بلغ الوزير ما قاله عباس عنه ولا شك فلن يمكث في وظيفته يوما واحدا . ورحم الله عباسا وعهد عباس .

ومرت مدة ولم ينقل عباس . فتواصى الموظفون بالصبر وقالوا إن الوزير منتظر اجتماع لجنة شئون الموظفين ليقرر نقله فيها فهو كريم لا يحب أن يقال عنه إنه اضطهد أحدا . واجتمعت اللجنة وقررت ترقية عباس إلى الدرجة الثانية . (همزات الشياطين)

ولما انتشر الخبر كاد الموظفون يصعقون وتتم أحدهم : « إنه يستحق . هذه عبقرية ولا شك ، يعيش في كل عهد وينال رضا الجميع » . فقال آخر : « إنه على كل لون كصبغة الثياب » . فقال ثالث وهو يزفر بشدة لينفس عن صدره المكظوم : « إنه كحرباء له القدرة على أن يتلون بلون المحيط الذي يعيش فيه . سيعيش دواما ولن تدول دولته أبدا » .

تذيل

بين الرواية والأقصوصة

١ — الرواية

ما هي الرواية ؟:

الرواية هي حكاية نظرية ذات أطوال مختلفة ، تتعلق بشخصية أو بشخصيات والحوادث والحركات التي تأتيا هذه الشخصيات . وقد تكون الرواية هادئة تجري في جو هادئ رزين ، وتروي حكاية جماعة من الجماعات خرجوا إلى الريف في نزهة مثلا ، أو فرد من الأفراد وما يدور في ذهنه من أفكار وما يعتمل في صدره من أحاسيس ؛ وقد تكون صاحبة تروي قصة سفينة تحطمت على شاطئ جزيرة مهجورة ، وما يقوم به الناجون من أفعال في تلك الجزيرة .

وعلى ذلك فالرواية دراسة شخصية من الشخصيات ، أو دراسة حالة من الحالات . وهناك مئات من الطرق لسرد الحكاية وروايتها . وفي مقدور القاص أن يكون نبيا في روايته فيتنبأ بما سيحدث في العصور المقبلة ، أو عالما يروي علمه ، أو نفسانيا يحلل النفوس ، أو ساخرا يسخر من الأوضاع والأشخاص . وقد يكون بعض هؤلاء أو كل هؤلاء ، فيصبح قاصا من الطراز الأول .

وعلى القاص أن يحاكي الحياة في قصته ، فما الرواية إلا مرآة تعكس الحياة .

وليعمل القاص الذى يصور شخصيات عصره على أن يصورها تصويرا صادقا حتى تكون روايته مرآة اجتماعية ينعكس فيها التاريخ الاجتماعى ، وشخصيات العصر الذى كتبت فيه .

الدوق الفنى فى تغير مستمر :

تتبع الروايات تغير الدوق الفنى ، فكلما ارتقى الدوق الفنى ارتقت الروايات . ولما كان الدوق الفنى فى تغير مستمر ، فالروايات كذلك فى تغير مستمر . فالروايات التى سلبت لب أسلافنا لا تروق لنا اليوم ، والروايات التى تفتتنا اليوم قد لا تعجبنا غدا . وآية ذلك أننا كلما قرأنا ارتقى ذوقنا ونشدنا ما هو أفضل مما يقدم إلينا . وإنا نرى اليوم أن ما يعجب به الخاصة لا يعجب العامة ، وكثيرا ما نجد اثنين يختلفان فى تقدير رواية واحدة ، وعلة ذلك أن أحدهما يحكم عليها بذوقه الفنى الذى تهذب وارتقى ، والآخر بذوقه الفنى الذى لم يتبلور بعد .

هناك روايات مفزعة كتبت منذ سنين كان قراؤها يخشون النوم عقب قراءتها ، لتأثرهم الشديد بها ولخشيتهم من أن يروا أبطالها المروعين فى أحلامهم ، فإذا ما قرأنا هذه الروايات اليوم لا يسعنا إلا أن نضحك ملء أشدقنا . وهناك روايات أخرى عاطفية كانت تدر دموع قرائها عند ظهورها ، فإذا ما قرأناها اليوم فإنها لن تحرك فينا إلا عواطف الهزء والسخرية .

الرواية ككل عمل فنى يعجز عن أن يبرز محاسنه بنفسه ، بل لا بد له من آخرين يبرزون هذه المحاسن . فالموسيقى تحتاج إلى سامع يصغى إليها فيقدرها ، والرسم الجميل يحتاج إلى ناظر يفتن به ، ويحتاج الشعر والرواية إلى قارئ . فلو لا السامع والناظر والقارئ لما كان للعمل الفنى من وجود . وعلى ذلك فالرواية أيا كانت لا وجود لها حتى تقرأ فيها القارئ الحياة ، وهى تعيش

فيه أثناء قراءتها فهي لذلك تعتمد عليه في بعض صفاتها .

ما هي الرواية الجيدة ؟:

لا يوجد مقياس دقيق لمعرفة الرواية الجيدة ، فالرواية — ككل عمل فنى — يختلف الناس في تقديرها ، وتختلف الأجيال المتعاقبة في تقديرها . فرب رواية فشلت في عصر من العصور ثم افتن الناس بها عقب ذلك ، ورب رواية أخرى افتن الناس بها ولم تتخط عتبة عصرها . وليس من السهل أن نختبر رواية من الروايات كما نختبر سيارة من السيارات أو قطعة قماش ثم نجزم بوجودها أو رداءتها عقب إجراء الاختبار . وإن الاختبار الوحيد لتقويم رواية ما هو مدى تأثير هذه الرواية في القارئ ، فالرواية التي يعجب بها فرد هي الرواية الجيدة بالنسبة لذلك الفرد ؛ فإن عاش فيها مدة طويلة وتغلغلت في نفسه ، وبدلاً من أن تزول نمت على مرور الزمن ، فللفرد أن يطمئن إلى أنه قد عثر على رواية طيبة ، وإذا كان إعجابه برواية أعجبت الناس على مدى طويل — خمسين أو مائة سنة أو أكثر — فله أن يثق من أنه قد عثر على رواية كلاسيكية حقيقية .

ولما كانت الرواية — كما قلنا — لا تعتمد على نفسها في إبراز محاسنها ، بل تعتمد على القارئ لتحيا في نفسه ، فإنه يتعذر الحكم لها أو عليها بقيمتها الفنية فقط ، بغض النظر عن القارئ . فقد تكون الرواية متوفرة فيها جميع الشروط التي تجعلها رواية كاملة ناجحة ، وعلى الرغم من ذلك يكون الفشل نصيبها لا لعب فيها بل لعب في القارئ الذي لم يتكون ذوقه الفني بعد . وإن هذا لا يضير الرواية في شيء ولا يقلل من قيمتها كعمل فنى ، ولكن الحكم لها سيتأخر إلى أن يرتقى ذوق القارئ ويستطيع تذوق ما فيها من كمال وجمال .

الشروط الواجب توفرها في الرواية الجيدة :

مضى على أول محاولة لكتابة رواية نثرية في إنجلترا أكثر من ٣٠٠ سنة ، وقد حاول القصاص خلال هذه الحقبة الطويلة محاولات للوصول إلى أنجع الطرق لسرد الرواية الناجحة ، وعلى الرغم من عدم الوصول إلى نتيجة حاسمة نهائية فقد أصبح للرواية شكل فني ومميزات خاصة تميزها عن الأعمال الفنية الأخرى ، وهذه المميزات هي :

(١) حبكة الرواية .

(٢) الشخصيات الحية .

(٣) الأسلوب .

١ — حبكة الرواية :

حبكة الرواية هي المجرى الذي ستندفع فيه الشخصيات والحوادث حتى تبلغ الرواية نهايتها . وعلى القاص عند تصميم فكرة روايته أن يتذكر أن من شروط الرواية أن يكون لها بداية ونهاية — بعكس الأقصوصة كما سيأتي ذلك فيما بعد . وتكوين الفكرة وتسلسلها تسلسلا طبيعيا منطقيا يحتاج من المهارة ما يحتاج إليه صنع قطعة أثاث دقيقة الصنع ؛ فكما أن قطعة الأثاث لا تكون رائعة إلا إذا كانت كاملة الشكل متناسقة الأجزاء ، فالرواية كذلك لا تكون أخاذة إلا إذا كانت كاملة متناسقة . وعلى ذلك فعلى القاص ألا يهمل تفاصيل روايته الضرورية ، وإلا كان كصانع الكرسي الذي ينسى صنع الرجل الرابعة !

وعلى القاص عند صياغة روايته أن يتدعى بداية قوية أخاذة تجذب القارئ وتجعله يتبعه مشغوبا ، ويستولى عليه ويسير به في مهارة حتى يبلغ به النهاية

الطبيعية التي تجعله يعتقد أن لا نهاية للحوادث والأفعال المروية غيرها .
وينبغي أن يكون الهدف الأساسي من سرد التفاصيل العديدة هو شرح
الفكرة الأساسية ، أو تهيئة جو الرواية ، أو التشويق المقصود منه دفع القارئ
إلى الفكرة الرئيسية .

قلنا إن الرواية ينبغي أن تقود القارئ إلى النهاية الطبيعية التي يقتنع أن لا
نهاية للحوادث المروية غيرها ، فإن قادته الرواية إلى نهاية لا تتفق وحوركات
الشخصية المرسومة وأفعالها فإنها نهاية فاشلة مفتعلة وإن كانت قوية أخاذة .
وإن مثل هذه النهاية لدليل على سوء الحبكة ورداءة البناء وفشل العلاج .

نوعا الحبكة :

الحبكة سواء أكانت جيدة الصياغة أم مفككة البناء نوعان : النوع الأول
يعتمد على الحوادث الضخمة وتسلسلها تسلسلا أخاذا يستولى على لب
القارئ ؛ وجميع روايات المغامرة والمخاطرة من هذا النوع ، والحادثة الضخمة
الفخمة هي عمودها الفقري . وإن ضخامة الحوادث وروعها تجذب القارئ
وتجعله لا يلتفت إلى الشخصيات على الرغم من أنها موجودة وحية أيضا ،
ولكنها ثانوية بجوار الحوادث التي تدفع القارئ إلى متابعة الرواية دفعا ، والتمتع
بالعرض الذي يأخذ باللب ويهر الحواس ، وينبغي أن تختار العناوين الأخاذة
الحارة لفصول مثل هذه الروايات . ولنفتح أية رواية من روايات المغامرة لنرى
عناوين فصولها ، ولتكن رواية سجين زندا مثلا لأنتوني هوب ، فسنقرأ هذه
العناوين التي ستضطرنا إلى متابعة القراءة مشغوفين : « خطة يائسة .. اقتحام
الفخ .. وجهها لوجه في الغابة .. لو أن الحب كان كل شيء ... وهكذا » .
وإذا ما انتهينا من رواية من هذه الروايات فإننا لا نذكر شخصا واحدا بل
نذكر فعلا ضخمة وحوادث مثيرة ، فمن منا يستطيع أن يتخيل بطلا من
أبطال ديماس في الفرسان الثلاثة ، ولكننا جميعا نذكر فعالهم الباهرة ولا ريب .

هذا هو النوع الأول الذى يعتمد على الحادثة ، أما النوع الثانى فيعتمد على الأشخاص وما ينجم عنهم من فعال . وإنهم وفعالهم وخواطرهم وما يدور فى صدورهم كل أولئك محور الرواية الرئيسى ، وأما الحادثة فى هذه الروايات فلا تأتى لذاتها بل لتفسير الشخصيات .

ولا يفهم من هذا أن رواية الشخصيات لا تحتوى على حادثة ، فهى أحيانا قد تحتوى على حوادث عديدة ، ولكن الغالب فيها أن تكون الحادثة محدودة أو معدومة ؛ لأن القاص يوجه كل التفاته إلى الشخصية أو الشخصيات التى يحاول أن يبرزها حية ناطقة .

لو درسنا روايات الكتاب المحدثين الذين يهتمون بخلق الشخصيات فى رواياتهم لألفيناها روايات نفسية خاصة ، ولوجدناها معدومة الحادثة أو مضطربتها . وقد أصبح هم الكتاب المحدثين أن يسجلوا ما يدور بعقول أبطال رواياتهم لا ما يأتونه من أفعال . وقد تكون الحركة الجسدية الوحيدة التى يقوم بها بطل رواية من هذه الروايات هى أن يصعد الدرج أو يستلقى على مقعد طويل ، ثم يأخذ الروائى فى إبراز خواطره وخلجات نفسه ، حتى إذا ما بلغ البطل نهاية الدرج أو اعتدل فى مقعده يكون القارئ قد ألم بماضيه كله ، وعقليته وطريقة تفكيره ، وكل ما يرغب الروائى فى سرده عنه .

أصبح الكتاب المحدثون لا ينظرون إلى العالم بعيونهم بل بعيون أشخاص رواياتهم ، وهمهم الأول تحليل أفكار من يقدمون إلى قرائهم . لذلك نجدهم يسجلون آراء ليست آراءهم ، ويقولون أقوالا لا تصدر عنهم بل عن أولئك الذين يضعونهم فى بوتقتهم لتحليلهم . ويحضرنى بهذه المناسبة حادثة طريقة وقعت لصديق لى كتب قصة حديثة ، وذكر فيها على لسان شخصية جاهلة من شخصيات روايته معلومات خاطئة كما هو منتظر من مثل تلك الشخصية ، فثار أناس محترمون على هذا الخطأ الفاحش الذى وقع فيه الروائى

الجاهل في زعمهم .

(ب) يجب أن تكون الرواية مفصلة مبسطة :

قد يضغط الروائي روايته فتخرج جملة غير منشورة ولا مبسطة ، فيكون من نتيجة هذا الإجمال أن تبتثر الرواية وتصبح غير واضحة السمات غامضة الشخصيات ، وقد وقع في هذا الخطأ بعض كبار كتابنا الذين حاولوا معالجة الرواية أخيراً ، فجاءت رواياتهم ملخصة الموضوع باهتة المعالم معدومة الشخصيات الحية أقرب إلى كتب التاريخ منها إلى الرواية الصحيحة المستوفية للشروط الضرورية للرواية الناجحة . إنهم بدلاً من أن يعالجوا حادثة بسيطة في كتيبتهم علاجاً صحيحاً ، قد حشدوا الحوادث حشداً وجيشوا الأبطال تجيئشاً وكدسوا كل ذلك في كتيب ينوء بجزء من هذا ، فكيف له أن يتسع لكل ما حملوه ؟!

إننى كلما قرأت أحد هذه الكتيبات خطر لى أن كتابها عندما كانوا يكتبونها كانوا يظنون أن النجاح أكيد كلما أتوا بأسماء رنانة وشخصيات مبرزة ، فجلبوا لها من الأسماء ألمعها ومن الحوادث أكثرها . دون أن يعنوا بتسلسل الحوادث المنطقي — وللخيال منطق — أو أن يهتموا بإبراز شخصية واحدة من الشخصيات العديدة الميتة اللامعة الأسماء إبرازاً فنياً ينبض بالحياة ويدوم على الأيام .

(ج) فن خلق جو الرواية :

على القاص أن يعمل عند بناء روايته على خلق الجو الذي ستجرى فيه حوادث الرواية ، وبالوصف الجيد يخلق الجو . ولا ضمير في أن يستغرق هذا الخلق فصلاً بأكمله فليس لنا على ذلك أى مأخذ لو نجح القاص بعد ذلك في تهيئة الجو الصحيح للرواية . إن أقصى ما نطلبه من القاص أن يسذل

قصارى فنه لتندمج معه فى جو روايته ، فإذا كانت روايته تجرى فى عصر فرعونى مثلا فليعمل على نقلنا إلى جو ذلك العصر وليجعلنا نحس أننا نعيش فيه ؛ فإذا ما نسينا أنفسنا ونحن نقرأ وعشنا فعلا مع أبطال الرواية فى ذلك العصر السحيق ، كان ذلك دليلا على نجاح القاص فى خلق جو روايته . وإذا كانت حوادث الرواية تجرى فى البحار أو على الشطآن فعلى القاص أن يهيم لنا الجو حتى ليجعلنا نشم رائحة البحر من بين السطور . وإذا كانت الحوادث تجرى فى الطبقة الراقية فليرفعنا إلى هؤلاء السادة ، وليجعلنا نتمتع بالعيش معهم وندمج فيهم . وإذا كانت الرواية تجرى فى حى فقير فليصف لنا الحى حتى لكأننا نراه ونعيش فيه .

إن الرواية الجيدة ليست الرواية التى تجعلنا نقف فى أثناء قراءتها لنقول : « هنا قاص يقص » ، بل الرواية الجيدة هى التى تستولى علينا وتجعلنا لا نفكر إلا فيما تروى وتنقلنا من عالمنا إلى عالمها ، فإذا ما فرغنا من قراءتها قلنا : « هنا الحياة » .

٢ — الشخصيات الحية :

هذه هى الخاصة الثانية من الخواص الضرورية للرواية الناجحة ، فالحبكة وحدها لا تكفى لإبراز رواية جيدة بل لا بد للرواية من أن تبض فيها الحياة ، فكلما كانت الشخصيات حية ، فعلى قدر الحياة التى فى شخوص الرواية يكون النجاح .

قد حسب بعض قصاصنا أن الفكرة هى كل شئ ، فراحوا يتفننون فى إبرازها دون الالتفات إلى الشخصيات وإبرازها حية ناسين أن إهمال الشخصيات يجعل عملهم شيئا آخر غير الرواية على أى حال . فالرواية لا تصبح رواية إلا إذا نبضت شخصياتها بالحياة .

ولو كانت الرواية تقاس بحبكتها وموضوعها لكانت جميع الحوادث الرائعة

التي تسردها الجرائد كل يوم متفنتة في عرضها روايات فنية ؛ ولكنها ليست كذلك ، ولن تكون كذلك لأن عنصر الحياة الذي بدونه لا تكون رواية ينقصها .

وهناك روايات مضبوطة الحبكة مسبوكة البناء ، ولكنها بالرغم من ذلك لا تبلغ في قيمتها الفنية روايات أخرى غير متماسكة لا شئ إلا لأن الثانية فاقتها بما تزخر به من حياة .

وعلى هذا القياس فروايات المخاطرة لا تبلغ روايات الشخصيات في القيم الفنية ، فما أيسر رواية حوادث مثيرة كثيرة ، وما أصعب خلق شخصية حية أو شخصيات .

إن القاص الناجح هو الذى يخلق لنا أناسا خالدين لا ننساهم بل تظل صورهم عالقة في أذهاننا دوما . إن من مميزات الشخصية الروائية الحية أنها تبقى ، بينما تندثر شخصيات عظيمة كانت تدب في الحياة وتصبح نسيا منسيا .

قد يظن البعض أن الشخصية العظيمة الحية لا بد وأن تكون من الشخصيات المبرزة في الحياة ، ولكن هذا الظن خاطئ لا نصيب له من الصواب ؛ فالشخصية العظيمة الحية هي الشخصية التي ينجح القاص في أن يهبها الحياة سواء أكانت شخصية ملك عظيم الفعال أم شخصية فقير بالي الثياب ، وإن العبرة كل العبرة بمقدار ما تزخر به من حياة .

(١) الحياة الخارجية والداخلية للأبطال :

قلنا إنه لا رواية بلا حياة ، فكيف يهب القاص لمخلوقاته الحياة ؟ هناك طريقتان لخلق شخوص الرواية : الأولى أن يرسم القاص الخطوط الخارجية للشخصية حتى تظهر وتبرز ملامحها ، وهذه تحتاج إلى دقة في الملاحظة وبراعة في الوصف حتى تتجسم الشخصية في مخيلتنا . وعمل القاص هنا أن

يصف الشخصية وصفا دقيقا ، فيذكر طولها وعرض الكتفين ولون الشعر والعينين ووصف الأنف والقدم والجبين والمشية واللفتة والثياب ... إلى أن تصبح الصورة واضحة أمام عيوننا وكأننا نراها على الستار الفضى في وضع مكبر مقرب واضحة الملامح والتفاصيل .

وتتطلب هذه الطريقة من القاص سرد تفاصيل كثيرة ، وله مطلق الحرية في أن يسرد جميع التفاصيل التي تحلو له . وليس لنا أن نضيق بما يسرد حتى لو ذكر لنا عدد أزرار السترة ، ما دام ما يسرده لنا نابضا للحياة .

كانت هذه الطريقة طريقة إبراز الشخص بالوصف الخارجى هي الطريقة التى يتبعها الروائيون قديما ، فكنا نعرف شكل الشخصية المرسومة والحركات التى تأتىها ، ولكننا ما كنا لنعرف ما تفكر فيه الشخصية أو ما يدور بداخلها من أحاسيس . ولكن كتابا آخرين — وأغلبهم محدثون — جنحوا إلى التعمق ، فراحوا يتغلغلون فى نفوس أبطالهم ويعرضون علينا ما تهمس به نفوسهم وما يعتمل فى صدورهم وما يدور فى عقولهم ، فأصبحت رواياتهم تعتمد على التحليل النفسى كل الاعتماد . وإن صياغة مثل هذه الروايات يحتاج إلى مهارة فنية وقوة بصيرة من القاص ، كما أن على القارئ أن يكون على استعداد لتحمل قدر من المشقة والجهد ، وهى مشقة لذيدة وجهد محبب .

وقد حاول بعض القصاص أن يعبر عن حالة الشخصية النفسية لا بوصف ما تحس به ، بل بإتيان حركة خارجية تدل بشكل واضح على الواغز النفسى لإتيانها . هذه الطريقة تستلزم أن يكون الروائى موهوبا فى هذه الناحية ، كما أنها تتطلب من القارئ انتباها وحسن تأويل .

وتخصص بعض هؤلاء الروائيين فى تسجيل ما يعتمل فى العقل الظاهر ، وروايات هؤلاء غالبا ما يقرأها جمهور القراء ويعجبون بها . وتخصص البعض الآخر فى تسجيل ما يدور فى العقل الباطن ، ومثل هذه الروايات تغرق فى

التحليل و يقرؤها الكتاب أكثر مما يقرؤها القراء عادة .

٣ - الأسلوب :

القاص البارع ساحر لأنه يضع أمام عيون أخیلتنا حوادث وأناسا حية تعيش أكثر مما يعيش أكثر الناس شهرة . وقد يعود جزء من سحره إلى الأشخاص والحوادث التي يرويها ، ولكن أهم ما فيه هو قدرته على جذبنا معه بما ينضد من ألفاظ ويركب من تراكيب تجذبنا في يسر حتى نندمج في جو روايته . هذه القدرة هي ما يعرف بالأسلوب .

والأسلوب هو الخاصة الثالثة للرواية ، فإذا كان الأسلوب رديئا فقدت الرواية ركنها هاما من أركانها . وقد فهم بعض الكتاب أن الأسلوب الجيد هو الأسلوب الضخم ذو الاستعارات الكثيرة والكنايات العديدة والمحسنات اللفظية والإغراق في الغرابة أحيانا ، فراحوا يبحثون في بطون المعاجم عن الألفاظ الغريبة ليرصعوا بها أسلوبهم ، فجاء أسلوبا ضخما فخما ولكنه للأسف ليس بأسلوب روائى ولا بأسلوب شخصى . فما هو الأسلوب الروائى ، وما هو الأسلوب الشخصى ؟

الأسلوب الروائى : هو الطريقة الخاصة التي يسرد بها المؤلف روايته ، فكما أنه لا يوجد اثنان في الحياة يتكلمان أو يتحركان بطريقة واحدة متشابهة من كل الوجوه ، فكذلك لا يوجد كاتبان لهما أسلوب واحد تماما . والأسلوب الروائى الجيد هو الأسلوب الذى يتفق وطبيعة الكاتب ويتلاءم والموضوع الذى يعالجه . فإذا كان الكاتب ساخرا جاء أسلوبه ساخرا ، وإذا كانت روحه شاعرية فليكن ما يكتبه شاعريا ، وإذا كانت روحه حزينة فلا يحاول كتابة الفكاهة ، فالفشل في ركابه ما دامت الفكاهة لا تجرى في دمه ، وهكذا .

وينبغي أن يكون الأسلوب الروائي صادقا مراعيًا لمقتضيات الأحوال ، فإذا ما تحدث الروائي عن شخص جاهل فلا يجوز له أن يجري على لسانه العلم والعرفان . وإذا ما حاول معالجة شخصية بسيطة فينبغي أن يكون أسلوبه بسيطًا في التراكيب والبناء . أما إذا حاول معالجة شخصية مركبة فمن الواجب أن يكون الأسلوب محكم الصياغة ولا ضرر في أن يكون مركزا .

الأسلوب الشخصي : هو الأسلوب الذي يكونه الكاتب لنفسه لا يقلد فيه أسلوب كاتب سواه ؛ وهناك كتاب نجحوا في تكوين أسلوب علما عليهم يعرفون به حتى لو لم يذكر اسمهم معه ، وهذا أقصى ما يطمح إليه كاتب . ولكن الغالبية العظمى من الكتاب عندنا يعيشون على أساليب من سبقهم من الكتاب عاملين بالقاعدة الخاطئة التي تلقوها في المدارس : « كل ما تحفظ فهو ملك لك » وهذا خطل عظيم . فهل يجوز لكاتب يعيش على موائد الجاحظ مثلا أن يدعى أن الأسلوب الذي يكتبه أسلوبه الشخصي ؟ وهل يجوز لذلك الذي يقتبس أسلوب القرآن أن يتجح ويدعى أنه يكتب بأسلوبه هو ؟ وهل يعتبر مثل هذا الكاتب كاتبًا أصيلا ؟ بالطبع لا . فما هو بكاتب أصيل بل هو ترجيع وصدى لكاتب أو كتاب .

آفاق الرواية :

آفاق الرواية واسعة ، بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الرواية أوسع الفنون والآداب آفاقا ، فهي تتسع لكل الفنون والعلوم والآداب وتؤدي أغراضها وإن كان أداء متواضعا أحيانا . فهي تتسع لأغراض الشعر من وصف وغزل ورثاء .. إلخ . كما تتسع للفلسفة والجدل والمنطق والحوار ، وهي معرض حسن لعرض المذاهب الاجتماعية المتباينة والآراء المتضاربة ، وقد أصبحت حديثا دعامة من دعائم علم النفس التحليلي . وقد يرسم الروائي — بالوصف

الجيد — لوحات أخاذة فيؤدى باللفظ ما يؤديه الرسام بالألوان .

الفكاهة والرواية :

الحياة لا تخلو من فكاهة فهي لا تنطلق جامدة بلا مرح . ولما كانت الرواية مرآة تعكس الحياة فلتعكس المرح فيما تعكس ؛ فالفكاهة من العوامل التي تساعد على بعث الحياة في الرواية وتجعلها تنطلق في يسر وجو بهيج .

ولكن ليس معنى هذا أن الرواية الخالية من الفكاهة لا تنطلق في يسر ، فهناك روايات خالدة لا أثر للفكاهة فيها ، ولم يقلل هذا من قيمتها الفنية ولم يجعلنا نقف ونحن نقرأها لتساءل أين الفكاهة هنا ؟ وعلى ذلك فالفكاهة ليست من مقومات الرواية ، ومرد ذلك إلى الروائي نفسه فإن شاء استعملها وإن شاء هجرها .

هناك كتاب لا يستطيعون كتابة فصل واحد دون أن يسخروا من أنفسهم أو من أبطال قصصهم ، وهناك كتاب يكتبون كتابا ضخما دون أن تقابل ملحمة واحدة أو سخرية واحدة ؛ فالمسألة استعداد الكاتب قبل كل شيء . وهناك روايات يطلق عليها اسم الروايات المضحكة ولا هدف لها إلا إضحاكنا وإدخال السرور علينا . وكلما أغرقنا في الضحك في أثناء قراءتها أغرق المؤلف في النجاح . ولا يطلب من مؤلفي مثل هذه الروايات التقيد بالقيود الفنية ، وغالبا ما يجنحون إلى البعد عن الحقيقة وإتيان أشياء لا تتفق ومنطق الخيال أو الحياة ، وكل ذلك مغفور لهم ما داموا يؤدون غرضهم الأول وهو إضحاك قرائهم وجلب السرور إلى نفوسهم . وإن قيمة هذه الروايات من الوجهة الفنية محدودة ، ولكن إذا كان الإضحاك يعتمد على ملاسات الأحوال وعلى شخصيات مرسومة رسما حيا فإن قيمتها تصبح قيمة فنية عالية .

مرونة الروائي والرواية :

الروائي طليق عندما يكتب روايته ، فهو حر في أن يكتبها فصولا قليلة طويلة أو أن يكتبها فصولا عديدة قصيرة . فهناك كتاب تتكون روايتهم من عدد قليل من الفصول الطوال ، وهناك تولستوى مثلا تتكون روايته من فصول قصيرة كثيرة . وإذا أعجب كاتب بفصل من روايته وأحس نشوة في الانطلاق فيه فليكتب كما يحلو له ، وليجعله طويلا كما يحب فليس هناك من قيود تقيده .

الرواية حرة في طولها ، فعلى الرغم من أن الروايات الحديثة يتراوح عدد كلماتها غالبا بين ٧٠٠٠٠ ، ٨٠٠٠٠ كلمة بينما كانت الرواية قديما تبلغ ثلاثة أضعاف هذا العدد ، إلا أن هناك روايات حديثة تجاوزت هذا القدر بكثير ، فرواية Point Counterpoint لألدس هاكسلي أطول جدا من هذا القدر . وهناك رواية جلزويردى Forsyte Saga التي تتحرك في بطء في كتب متتابعة ، قاصة تاريخ عائلة خلال أجيال هي أول رواية عصرية إنجليزية ولا شك .

وليست الرواية حرة في طولها فقط بل هي حرة في طريقة سردها ، فللروائي أن يسرد روايته كما يحلو له دون أن يقيده قيد ، على نقيض المسرحية فهي محكومة بالحوار والمنولوجات . ففي المسرحية قد يختلف عدد الفصول ولكن لن تختلف الأداة أبدا ، فلا تروى المسرحية إلا عن طريق واحد هو الحوار بين الشخصين بينما يستطيع المؤلف في الرواية أن يستعمل الوصف أو الحوار ، أو الوصف والحوار معا . وزيادة على ذلك فإن الكاتب المسرحي لا يستطيع أن يقحم نفسه ليشرح ملاحظاته على شخص مسرحيته أو ليدلى برأيه الشخصي ، في حين أن للروائي كل الحق في أن يفعل هذا .

إن أبسط طريقة لسرد رواية هي أن يأخذ الروائي في قص روايته بينما يستمع

القارئ . وإن رواية جزيرة الكنز لاستيفنسن لأحسن مثل للرواية المسرودة ، فإن جيم أحد أبطال الرواية يأخذ في قص ما حدث فيرى القارئ الحوادث من زاوية واحدة ووجهة نظر واحدة .

وهناك طرق أخرى لسرد الرواية أكثر تعقيدا ، فقد يلجأ الروائي إلى محاكاة الحياة فيجعل السرد مسرحيا ، أى يجعله حوارا مباشرا . ثم يستفيد بما لا يستفيد منه الكاتب المسرحي فيأخذ في التعليق على الشخصيات وأفعالها بين لحظة وأخرى . ففي اجتماع ما مثلا يأخذ الأشخاص في التحدث فنعلم منهم علاقة بعضهم ببعض ، وبعض صفاتهم . وهنا يقف عمل الكاتب المسرحي ، أما الروائي فيستطيع أن يفسر بعد ذلك الحوار الدائر والشخص المشرقة فيه ، وقد يقحم أشخاصا غير مشتركة فيه ولا علاقة لهم به . وهناك مئات من الطرق الأخرى لسرد الرواية .

الفرقة بين الرواية والموضوع :

قلنا إن الرواية تتسع لكل الفنون والآداب ، ونحب أن نقول شيئا عن الرواية التي تتعرض للتاريخ أو لعرض مذهب اجتماعي أو اقتصادي أو فلسفي مثلا . فإننا في أغلب الأحيان نعجب بالسرد التاريخي أو بالمذهب الاقتصادي أو الاجتماعي أو الفلسفي ، فلا يسعنا إلا نهتف معجبين : يا لها من رواية ويا له من روائي ! دون أن نميز بين الرواية والموضوع الذي تعالجه . وعلى الرغم من أن بناء الرواية رديء ومن أنها بعيدة عن مقاييس الرواية الصحيحة يستمر إعجابنا بها كرواية ، وفي هذا خطأ بالغ . فمن الواجب أن نفرق بين الرواية الجيدة والموضوع الجيد ، وعلينا أن نعجب بالرواية التي تسير على قواعد الرواية السليمة مهما كان الموضوع الذي تعالجه ، وينبغي ألا ندع الموضوع يهرنا ويجعلنا نخبط في حكمنا . فإذا كانت الرواية جيدة البناء ومستوفية الشروط الصحيحة فلنا أن نهتف يا لها من رواية ويا له من روائي ! أما إذا كانت

(هزات الشياطين)

الرواية رديئة البناء بعيدة عن الموصفات اللازمة للرواية وجيدة الموضوع ، فلنا كل الحق في أن نصيح ياله من تاريخ وياله من مبدأ أو ياله من مؤرخ أو ياله من مصلح أو ياله من فيلسوف !

الواقعية والرواية :

كان القاص في عصور الأشراف والفرسان يختار بطل روايته من طبقة الملوك أو الأشراف أو القواد أو الفرسان ، ثم يضيف على بطل روايته صفات البطولة والإقدام والشرف والنبيل والعفة والترفع والرحمة وجميع الصفات الطيبة . فكان البطل يبرز في صورة بعيدة عما نألفه من صور الإنسان ، فما كان يتصف بصفة من صفات الضعف البشري ، وما كان يأتي من الأفعال إلا كل نبيل ، ولا ينطق إلا بكل عفيف ظريف . وكان من ألزم صفاته الكمال في كل شيء ، فكان أقرب إلى الملائكة منه إلى الإنسان الذي يصيب حيناً ويخطئ أحياناً . وكان القاص يسرد مواقف بطله الخارقة ويبرز عواطفه العنيفة الثائرة ، فكان طابع الرواية روعة في الحوادث ومبالغة في شخصية البطل وجموحاً وشططاً ، وعلى ذلك كانت الرواية تروى الشاذ من الأفعال وتبرز الغريب من الأشخاص .

ومرت الأيام وتكونت طبقة متوسطة أخذت تعمل في كل ميدان فحولت الأنظار إليها واهتم الناس بها ، فراح القصاص يصورون حياة هذه الطبقة الجديدة ويصورون ما يقع تحت أعينهم ، فجاءت روايتهم تروى مألوف الحياة وتعبر عن الحياة العادية التي تقع كل يوم وتبرز الأشخاص العاديين الذين نقابلهم في حياتنا ونعرفهم ويعرفوننا ، فلا روعة في الحوادث ولا شذوذ في الأشخاص ، فكانت قصصاً عادياً عن الإنسان العادى الحقيقى لا غرابة فيه ولا شذوذ .

إن الرواية الواقعية ليست نقل الحياة كما هي في فوضى واضطراب ، بل على

القاص الواقعى أن يروى الواقع فى ترتيب وتسلسل ونظام ، ولا يضيره أن يقدم فى الحوادث أو يؤخر أو يطيل أو يهذب أو يحذف ، ما دام نتيجة ذلك انتظام عقد الحوادث وتسلسلها التسلسل المنطقى .
إن عمل القاص الواقعى هو أن يبرز الحوادث التى تقع أمام أعيننا كل يوم فى ثوب جذاب ، وأن يفسرها لنا ويوضحها حتى ليجعلنا نخال أننا نراها لأول مرة ، جديدة مزهورة .

٢ - الأقصوصة

نشأتها :

يُخيل إلّى أن الإنسان قاص بطبعه ، فما تخيلت جماعة من البشر مجتمعين إلا ابتأ أحدهم يقص والباقيّن مصغين إليه ، فإن رغبة سرد الحكايات الإنصات إليها صفة من الصفات الموروثة فى الإنسان . وعلى ذلك فالأقصوصة من أقدم أنواع الأدب إن لم تكن أقدمها جميعا ، ومن المحتمل أن أول ظهورها فى العصور المتناهية فى القدم كان حول النار التى شبهها الصيادون فى الليل ليجلسوا حولها فيأخذ كل منهم يقص — دون وعى فنى أو تزويق خيالى — ما فعله فى يومه .

وترجع أول أقاصيص مدونة عثر عليها إلى ٦٠٠٠ سنة تقريبا فقد عُثر على ورق بردى مسجل به أقاصيص فرعونية أغلبها أسطورية ، وقد ترجمت هذه الأقاصيص إلى اللغات المتباينة وقد نقلت إلى العربية حديثا . وبعد الفراعنة أنشأ شعراء اليونان والرومان ملاحم تروى فعال آلهتهم وأبطالهم الباهرة فى ثوب قصصى ، وكان للهنود القدماء حكاياتهم الخرافية ، وبرع الفرس القدماء فى الأساطير والقصص المروى على ألسنة الحيوانات ، ودون الشرق

أقاصيصه في ألف ليلة وليلة .

ولم تعرف الأقصوصة هذه الشعوب فحسب بل وردت في جميع الكتب الدينية ، ففي التوراة والإنجيل والقرآن أقاصيص أخاذة بلغ بعضها درجة فنية عالية .

انتشرت الأقصوصة انتشارا هائلا وتنوعت تنوعا عظيما في خلال الخمسين سنة الأخيرة ، وقد كان انتشارها وتنوعها في هذه الحقبة الصغيرة أعظم من انتشارها طوال القرون الخمسة السابقة . ويرجع بعض هذا الانتشار المفاجئ إلى التقدم الذي تقدمته الرواية عموما ، فقد أقبل الناس على القراءة أخيرا إقبالا شديدا أغرى عقولا كثيرة وأقلاما أكثر على النشاط وكتابة روايات فنية فاكتشفت مائة طريقة وطريقة جديدة لكتابة وسرد الرواية ، وقد أصبحت هذه الثروة الجديدة من ميراث كاتب الأقصوصة .

الأقصوصة قبل القرن التاسع عشر :

لم تكن الأقصوصة في القرن الثامن عشر من أنواع الكتابة المعروفة للكتاب ، فإنها لم تكن فنا واعيا قبل نهاية القرن التاسع عشر . فإذا وجدنا أقصوصة قبل ذلك فليس معنى هذا أنها كانت معروفة ، بل معنى ذلك أنها جاءت عفوا الخاطر وعن غير قصد ، فما حاول كاتبها أن يضعها في قالب أقصوصة قبل أن يكتب ولكنه كان يحاول أن يكتب نادرة من النوادر فجاءت أطول مما كان يقدر ، أو أنه كان يحاول كتابة رواية كاملة فجاءت أقصر مما كان يظن . وقبل أن تتخذ الأقصوصة شكلها الخاص بها المميز لها ، كان من المألوف أن نجد مجموعة أقاصيص مرتبطة بعضها ببعض لتؤلف رواية كاملة .

الأقصوصة في القرن التاسع عشر :

كان ينظر إلى الأقصوصة في أوائل القرن التاسع عشر على أنها رواية مختصرة ، فهي في نظر الكتاب شيء يعشون به عندما لا يجدون الوقت الكافي لإبراز رواية كاملة مستوفية كل شروط الرواية . ويخيل إلي أن هذا هو الحادث الآن عندنا ، فأغلب قصاصي المجلات لا يكتبون أقاصيص فنية مستوفية لشروط الأقصوصة بل يكتبون روايات مختصرة . وسنتكلم عن ذلك عند التكلم عن شكل الأقصوصة والفرق بينها وبين الرواية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر فطن بعض الروائيين إلى الفرق البين بين سرد الأقصوصة وسرد الرواية الكاملة ، وحبكة الأقصوصة وحبكة الرواية الكاملة ، فكتبوا أقاصيص فنية لها طابع خاص وبناء خاص ، وبذلك أخذت الأقصوصة شكلها وأصبح لها ثوب أدبي مميز .

فضل المجلات على الأقصوصة في الخارج :

انتشرت المجلات في خلال الخمسين سنة الأخيرة انتشارا هائلا وقامت بنشر أقاصيص أقبل الناس على قراءتها إقبالا شديدا فأكثر المجلات منها ، ونشطت الأقلام لكتابة الأقاصيص التي تسد الحاجة الملحة المتزايدة ، فكان من نتيجة ذلك أن جاءت الغالبية العظمى من هذه الأقاصيص آلية الإنتاج ، أو شيئا تافها يموت لساعته ، ولكن لا بأس في ذلك ما دام الأدب الصحيح من نتاج الأبراج العاجية عادة ، فإن الكتاب الممتازين لا يدفعون إلى الناس إلا ما يرضون هم عنه أولا ، فقد أنتج هؤلاء الممتازون أقاصيص رائعة بجوار تلك الأقاصيص الغثة العديدة .

وإن سومرست موم يرى أن الفضل الأول في انتشار الأقاصيص يعود إلى المجلات أولا وأخيرا ، فهو يقول : « ما من نوع من أنواع الفنون ينتج

ما لم يكن هناك طلب له ، فلو أن المجلات لم تنشر الأقاصيص لما كانت الأقاصيص تكتب .
هذا هو أثر المجلات فى الأقصوصة فى إنجلترا وأمريكا ، فما هو أثرها فى مصر ؟

إن المجلات فى مصر حجر عثرة فى سبيل انتشار الأقصوصة الفنية الصحيحة ، فهى لا توسع لها صدرها ولا تأخذ بيدها ، وإذا ما نشرت أقصوصة فيشترط فيها أن تكون ذات مستوى خاص يرضى جمهور قرائها ، وإذا علمنا أن جمهور قراء مجلاتنا لم يتكون ذوقهم الفنى بعد ، فإن جناية المجلات بما تقدم من أقاصيص بعيدة عن الأقاصيص الفنية بعد السماء عن الأرض جناية مزدوجة ، فهى تجنى أولاً على ذوق القارئ الذى يعتمد عليها فقط فى تكوين ذوقه الفنى ، فتجعله يعتقد ألا أقصوصة إلا ما يقرأ — على الرغم من أن أغلب ما يقرأ ليس بأقصوصة — وتعوق مسيرتنا للأدب العالمى ثانية ، وتجعلنا متخلفين عنه دواما ، ولولا بعض نفر من قصاصنا المخلصين لفنهم ، الذين يخرجون مجاميع قصصية من وقت لآخر لما كان عندنا أقاصيص بمعناها الصحيح .

ما هى الأقصوصة الصحيحة ؟:

عرفت الأقصوصة الصحيحة بأنها صورة مرسومة بالألفاظ . وقال سومرست موم : « إن الأقصوصة الحسنة جزء من رواية تتعلق بحادثة واحدة حية أو روحية ، ويمكن قراءتها فى جلسة واحدة على أن تهزنا وتترك فينا أثرا ، ويجب أن يكون لها وحدة أثر أو تأثير وأن تتحرك فى خط واحد من بدايتها إلى ختامها » . هذا هو تعريف الأقصوصة فتعالوا نطبقه على ما نقرأ عندنا ؛ إن أغلب الأقاصيص العربية لا تروى جزءا من رواية بل تروى رواية كاملة ،

ولا تكتفى بحادثة واحدة بل تروى حوادث حسية متباعدة لا وحدة فيها ، كما أنها لا تتحرك في خط واحد من بدايتها إلى ختامها . فلم يبق لها من صفات الأقصوصة إلا أنها تقرأ في جلسة واحدة !

الشروط الواجب توافرها في الأقصوصة :

حاول النقاد أخيراً أن يضعوا للأقصوصة شروطاً ينبغي توافرها فيها كتلك الشروط التي وضعت للرواية ، والتي لا تصبح الرواية فنية إلا إذا استوفتها . للأقصوصة مطلق الحرية في أن تبدأ أينما تبدأ وأن تنتهي حيث لا نهاية ، بعكس الرواية التي ينبغي أن تكون لها بداية وختام . وعند تشيكوف « الأقصوصة هي ما لا نهاية لها ولا بداية » . ولكن هذه النظرية لا يمكن تطبيقها على أقاصيص كثيرة جيدة كأقاصيص كبلنج . وإن الشرط الوحيد الواجب توافره فيها والذي اتفق عليه جميع كتاب الأقصوصة هو وحدة الموضوع وانسجامه ، على ألا تخضع أصلاً للحبكة وعلى ألا تروى بالطريقة التي تروى بها الرواية . فعلى كاتب الأقصوصة ألا يذكر تفاصيل موضوعه — بخلاف الروائي — بل عليه أن يهدف مباشرة إلى الحادثة التي يعالجها . وقد قال ألن بو في ذلك وهو أبو الأقصوصة الحديثة ومنشؤها : « يجب ألا يكون في الأقصوصة كلمة واحدة لا تقود مباشرة أو غير مباشرة إلى صميم موضوع الأقصوصة » . وعلى الرغم من أنه لا هو ولا من جاء بعده قد اتبع ذلك حرفياً ، إلا أنهم كانوا يضعون هذه القاعدة نصب أعينهم وهم يكتبونها .

الصفات الواجب توافرها في كاتب الأقصوصة :

— يجب أن يتحلى كاتب الأقصوصة بصفتين :

١ — الصفة الأولى تظهرها كلمات جولز ويرذى الآتية بجلاء : « إن الشرط الأساسي في كاتب الأقصوصة هو قدرته على إمتاع القارئ

والاستحواذ عليه جملة فجملة .. إن كاتب الأقصوصة — على عكس الروائي — لا يستطيع أن يعتمد على التأثير الإجمالي للفصل بعد الفصل ، لذلك يجب أن تكون كتابته أكثر تشبعا وتركيزا لأنه يخضع خضوعا شديدا لنطاق الأقصوصة .

٢ — الصفة الثانية هي ألاّ يعرض القاص على قرائه ما يراه بعينه كما هو بل ينبغي أن يصوغ ما يراه في قالب قصصى أخاذ . وفي هذا يقول سومرست موم : « في رأيي أنه لا يكفي أن يعطيك الكاتب الحقائق البسيطة كما يراها بعينه (هذه الحقائق ليست حقائق بسيطة صحيحة بل حقائق شوهتها غريزته) بل عليه أن يصممها تصميمًا فنيا وأن يقدمها لك في قالب فني !

أهناك قصص جديد يقص ؟:

قلنا إن الأقصوصة من أقدم أنواع النشاط الإنساني وإن كانت الأقصوصة الفنية لم تعرف إلا في نهاية القرن التاسع عشر ، وعلى ذلك فلم يعد هناك مواضيع جديدة تقص فقد استنفدت الأجيال المتعاقبة الحكايات كلها . لذلك لن نطمح في أن يأتي قاص أو روائي مجديد في الموضوع ولكن نطمح في أن نرى علاجًا جديدًا دواما .

إن هدف الأدب وصفته اللازمة هي قدرته على أن يعيد ترجمة الحقائق الأزلية على ضوء التجارب الوقتية ، فعلى الرغم من أن الطبيعة البشرية لا تتغير فإن الملابسات في تغير مستمر .

فالإنسان العادي اليوم يشبه الإنسان العادي الذي سبقه على مر العصور في أشياء ويختلف في أشياء . فهو يشبهه في صفات الإنسان الفطرية الغريزية ويخالفه في الصفات العقلية المكتسبة من الأحوال الاجتماعية المتغيرة التي تكون بيئته .

صارت الحياة أكثر تعقيدا مما كانت فقد نتج عن الثورة الصناعية مشاكل

اجتماعية واقتصادية ، ووسعت في نفس الوقت من نشاط الإنسان ونوعيته فأصبح على القاص أن يراعى جميع هذه الملاحظات الجديدة عندما يحاول معالجة حادثة حسية أو روحية في أقصوصته ، وصار من المستحيل أن يسرد الحادثة بعيدا عن هذه المؤثرات جميعها . أضف إلى ذلك أن معلومات الفرد العادى في هذا العصر قد ارتقت عن معلومات الفرد العادى في العصور السابقة . فهو يعرف الآن جيدا أن الإنسان ليس طيبا كله ولا رديئا كله ، وعلى ذلك فلن يقبل الخطوط السوداء فقط أو البيضاء فقط عند رسم شخصية من الشخصيات ، أى أنه لن يقبل أن تصور له شخصية شريرة كلها أو شخصية خيرة كلها بل لا بد أن تصور له الشخصية كما هى خليط من الخير والشر .

وقد اهتم كتاب هذا العصر بتحليل الأفعال إلى مجموعة دوافع ، فاهتم القراء بتبع الدوافع أكثر من اهتمامهم بالفعال نفسها ، ومن هنا طغت موجة التحليل على أدب العصر ودمغته .

طول الأقصوصة :

كان البعض يظن أن الفرق الوحيد بين الرواية والأقصوصة هو طول كل منهما ، فإذا ما طالت القصة أصبحت رواية وإذا ما قصرت صارت أقصوصة . وإن كثيرا من كتاب الأقصوصة عندنا قد وقعوا في هذا الخطأ فكتبوا الروايات المختصرة وهم يحسبون أنهم يقدمون أقاصيص . وقد وضح في الأذهان أن من مستلزمات الأقصوصة قصرها ولكن هذا ليس صحيحا ، فليس من الضروري أن تكون الأقصوصة قصيرة ، فهناك أقصوصة « لفة المسمار The turn of the screw » لهنرى جيمس تبلغ ٤٠ ألف كلمة ، وسبق أن قلنا إن الرواية الحديثة تتراوح بين ٧٠ ألف و ٨٠ ألف كلمة أى أنها تبلغ نصف الرواية الحديثة أو أكثر قليلا . وعلى الرغم من طولها هذا فهى أقصوصة

لأنها عولجت علاج الأفاصيص ، فالعبرة بالعلاج والشكل لا بالطول والقصر .

الفرق بين الأقصوصة والرواية :

١ — للرواية بداية ونهاية ، ولا يفهم من النهاية أنها نهاية الشخصيات التي تحيا في الرواية بل نهاية الحوادث التي تروى نهاية كاملة ، وإن كانت الشخصيات تبدو أنها تتجدد لتحيا حياة أخرى متجددة — أما الأقصوصة فتبدأ أينما تبدأ وتنتهى حيث لا نهاية ، وقد اشترط لها تشيكوف أن تكون بلا بداية ولا نهاية .

٢ — الرواية مرآة تعكس الحياة بصورة خاصة ؛ بينما الأقصوصة تعالج لحظة من الحياة في لحظة من اللحظات .

٣ — تروى الرواية أكثر من حادثة واحدة ؛ في حين أن الأقصوصة لا تروى إلا حادثة واحدة حسية أو روحية .

٤ — لا بد في الرواية من ذكر التفاصيل الضرورية كلها ، وإن أهملت التفاصيل تبدو الرواية ناقصة مبتورة ؛ أما في الأقصوصة فينبغى عدم ذكر أية تفاصيل ولا يذكر إلا ما له علاقة وثيقة بصلب الموضوع مباشرة .

٥ — تكمل الشخصية وتتضح في الرواية وتكون لها صفات عامة واحدة من أول الرواية إلى آخرها ؛ أما في الأقصوصة فالشخصية لا تكمل أبدا ، وكل ما تقدم الأقصوصة هو عرض ناحية من الشخصية وقد لا تكون هذه الناحية أبرز ناحية فيها .

٦ — لا بد للرواية من حبكة ، وقد تفاوتت هذه الحبكة قوة وضعفا ؛ ولا تخضع الأقصوصة للحبكة فإن شرط الأقصوصة الوحيد هو التناسق ووحدة الموضوع ، ثم لا تعرف بعد ذلك حدودا في البناء أو الموضوع .

الأقصوصة الفرنسية والأقصوصة الروسية ، أو أقصوصة القرن التاسع عشر وأقصوصة القرن العشرين :

ما من شك في أن هناك فرقا بين أقصوصة اليوم وأقصوصة القرن التاسع عشر ، وما من شك في أن كل عصر له طابعه الخاص بغض النظر عن اختلاف الممالك والبلدان . فقد سادت الأقصوصة الفرنسية وانتشرت في القرن التاسع عشر وراح كتاب العالم ينسجون على منوالها ، وانتشرت الأقصوصة الروسية في عصرنا وأخذ كتاب الأقصوصة يقتفون أثرها ، فما سبب ذلك ؟ إن السبب واضح ظاهر ، فالأقصوصة لم تعرف في إنجلترا وأمريكا إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت تعرف كرواية مختصرة لم يجد المؤلف الوقت الكافي لتفصيلها . وأقبل القرن التاسع عشر وكان عصر الرواية الذهبى ، فاهتم الكتاب العظام بالرواية ، وعلى الرغم من أنهم كتبوا بعض أقاصيص من وقت لآخر إلا أنهم كانوا يميلون إلى اعتبارها تحررا للذيذا من قيود الرواية الصعبة ، وكانوا قليلا ما يشعرون أنهم يقومون بعمل يتلاءم وطبعهم واستعدادهم . وسواء أكان تقصيرهم في الأقصوصة عن عجز في صياغتها أو عن عدم ميل إلى كتابتها ، فإن ما كتبوه كان مقيدا بقيود جامدة كأنها قوانين طبيعية صارمة . إلى أن قام دى موباسان في فرنسا وتحرر من تلك القوانين وحطمها ، وكان دى موباسان يدرك المعنويات إدراكا فنيا ويشعر بالشعور الاجتماعى ، فكتب أقاصيص لها طابع إنسانى خاص وكان يحافظ فيها على الجمال الفنى ، فترجمت أقاصيصه فكان تأثيرها بالغا في كتاب الأقصوصة في العالم أجمع ، فصارت قبلة كل كاتب ينشد التطلع إلى وجه الحياة .

ساد الأدب الفرنسى وراح كتاب الأقصوصة ينشدون الكمال الفنى وإن كان لا يتفق وحقيقة الحال في الحياة ، وتبدلت الدنيا وظهرت الأزمان الحادة

فصارت الحياة بغیضة غیر مرضیة سادها البؤس والكآبة والكساد والتشاؤم
اللاشعوری ، وكانت روسيا منسرحا هائلا للبؤس والكآبة والكساد فصور
تشیكوف ما یلمس تصویرا صادقا لا تمویه فیه ، فخلق جیلا یؤمن بالواقع
ولا یؤمن بالکمال الصادق بالنسبة للفن الکاذب بالنسبة للحیة .

كان هم تشیکوف الأول تصویر الحركة الداخلیة لأفکار الإنسان
وشعوره وقد نجح فی هذا نجاحا أغری کتاب الجیل علی محاکاته ، وبفضل
تشیكوف وأتباعه من الروس دمغت أقاصیص عصرنا بالطابع الروسي .

الأقصوصة فن ديمقراطي :

عصرنا الحالی هو عصر الأقصوصة الذهبی بلا نزاع ، وقد كان لانتشار
الجرائد وتنوع المجالات واتساع نطاق التعلیم العام الذی زاد من حب
الاستطلاع فی الناس أجمل الأثر فی تقدمها . زیادة علی ذلك فإن الحیة
الجديدة بسرعتها وتنافسها جعلت هذا النوع من الكتابة أكثر أنواع الأدب
ديمقراطية ، فهو یقدم لقرائه القصص المتباينة والأجواء الفاتنة والشخصیات
العديدة المتنوعة علی اختلاف فی المستوى والنهج ، فیجد كل فیه بغیته وما
یرضیه . وإن قصرها جعلها تتناسب ودنیا الجلبة وعصر السرعة الذی تحیا
فیه ، فهي تقدم أشياء مختصرة مركزة واضحة . وهي النوع الوحید من
الكتابة الذی يفهمه أى قارئ مهما كان مستواه فی بسر ، فهي أدب الشعب
بلا مرأ .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحسن بطل الاستقلال
 - أبو ذر الغفارى
 - بلال مؤذن الرسول
 - فى الوظيفة
 - سعد بن أبى وقاص
 - همزات الشياطين
 - أبناء أبى بكر الصديق
 - فى قافلة الزمان
 - أميرة قرطبة
 - النقاب الأزرق
 - المسيح عيسى بن مريم
 - أهل بيت النبى
 - محمد رسول الله
 - تأليف : مولاى محمد على
 - ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى
 - قصص من الكتب المقدسة
 - صدى السنين
 - حياة الحسين
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)
- (رواية)
- (قصة)
- (قصة)
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)
- ترجمت إلى الاندونيسية

- الشارع الجديد (رواية)
- وكان مساء (قصة)
- أذرع وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسراء والمعراج
- القصة من خلال تجاربي الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- النمر

- الله اكبر
- ثلاثة رجال فى حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب فى أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

السيرة النبوية في ٢٠ جزءًا

- | | |
|---------------------------|-------------------|
| ١ — إبراهيم أبو الأنبياء | ١١ — الهجرة |
| ٢ — هاجر المصرية أم العرب | ١٢ — غزوة بدر |
| ٣ — بنو إسماعيل | ١٣ — غزوة أحد |
| ٤ — العدنانيون | ١٤ — غزوة الخندق |
| ٥ — قريش | ١٥ — صلح الحديبية |
| ٦ — مولد الرسول | ١٦ — فتح مكة |
| ٧ — اليتيم | ١٧ — غزوة تبوك |
| ٨ — خديجة بنت خويلد | ١٨ — عام الوفود |
| ٩ — دعوة إبراهيم | ١٩ — حجة الوداع |
| ١٠ — عام الحزن | ٢٠ — وفاة الرسول |

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

رقم الإيداع ٣٩٧٢ / ٧٧

الترقيم الدولي ٣ — ١٦٣ — ٣١٦ — ٩٧٧

To: www.al-mostafa.com